مشاكل الحجاج

السيّد علي قاضي‌عسكر

تقديم

كان منذ القدم ومازال للحج عند الإيرانيين مكانة كبيرة للغاية، وأوضح دليل على ذلك ما كتبه المسعودي (وهو مؤرخ عاش في القرن الرابع الهجري) حيث قال:

«... وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تعظيماً له، ولجدّها إبراهيم عليه السلام وتمسكاً بهديه، وحفظاً لأنسابها. وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابك، وهو جدّ أردشير بن بابك، وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه كرجوع ملوك المروانية إلى مروان بن الحكم، وخلفاء العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب. ولم يَلِ الفرس الثانية أحدٌ إلّا من ولد أردشير بن بابك هذا، فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل، فقيل: إنما سميت زمزم لزمزمته عليها، هو وغيره من فارس، وهذا يدلّ على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البئر. وفي ذلك يقول الشاعر في قديم الزمان:

زَمزمتِ الفرسُ على زَمزمِ وذاك من سالِفها الأقدمِ

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلك، فقال من كلمة:

وما زِلنا نحجّ البيتَ قِدماً ونُلفى بالأباطِح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيتَ العتيقَ يطوفُ دينا
فطافَ به، وزمزمَ عند بئر لإسماعيل تروي الشاربينا

وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان، وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك هذا، أهدى غَزالَيْن من ذهب وجوهراً وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه [فدفن] في زمزم.

وقد ذهب قوم من مصنفي الكتب في التواريخ وغيرها من السير، أنّ ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، والله أعلم.»[١]

ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ٤٣٨هـ وهو العام الذي حجّ فيه ناصر خسرو القبادياني (٣٩٤ـ٤٨١هـ) وكان إسماعيلي المذهب، ودوّن خلاله يومياته عن الحجّ، لم يُقدم أحد على تأليف كتاب حول الحجّ وكيفية أداء الإيرانيين له، وإن كان قد ورد ذكر مكة والحرم الشريف في أشعار بعض شعراء القرنين الثالث والرابع، وهو ما يدلّ صراحة على حضور هذه المقدسات في أدبيات ذلك العصر.

ويعدّ (رودكي) وهو أقدم شعراء الفرس (م٣٢٩ـ٣٣٠هـ)، أول من ذكر الكعبة في أشعاره، حيث قال:

مكى به كعبه فخر كند مصريان به نيل
ترسا به اسقف وعلوى به افتخار جدّ[٢]

(١) مروج الذهب ١: ٢٦٥، طبع دار الأندلس، بيروت، ١٣٨٥هـ

(٢) «فليفتخر المكيّ بالكعبة والمصريّ بالنيل، والنصرانيّ بالأسقف والعلويّ بجدّه».

وقال في بيتَين آخرين:

از كـــــعبه كـــليسا نشـــينم كـــردى
آخـــر در كـــفر بـــى قـــرينم كـــردى
بـــعد از دوهـــزار سـجده بـر درگـه دوست
اى عشـــق چـــه بـــيگانه زديـــنم كـردى[1]

وأنشد (بسام كورد)، وهو شاعر عاش في القرن الثالث الهـجري، وكان من الخوارج الذين ظهروا في عهد (يعقوب ليث)، قطعة شعرية من أبيات خمسة يمدح فيها الأخير لتغلّبه على عمّار الخارجي وانتصاره عليه، وجاء ذكر مكة والحرم في بيتَين من تلك الأبيات وهما:

مكـــه حـرم كـرد عـرب را خـداى عـــهد تـــو را كـرد حـرم در عـجم
هـــر كـه درآمـد هـمه بـاقى شـدند باز فنا شـد كـه نـديد ايـن حـرم[2]

ومنذ ذلك الوقت تطوّر هذا الفنّ من الشعر واتّسع، فقام العديد من شـعراء الفرس بإنشاد القصائد حول مكة والمدينة، إمّا صراحةً أو تلميحاً إليها باستخدام بعض العبارات التي تخصّ هذين الحرمين الشريفين. ومن ذلك قول الشاعر:

بـــه مـــوقف عـــرفات وبـه مـجمع عـرصات
بـه حشـر ونشـر وبـقا ولقـا وحـور وقـصور

(١) «لقد أنسيتني الكعبة وجعلتني من روّاد الكنيسة، فأصبحتُ في الكفر فريداً، فبعد أدائي لألفي سـجدة عـند عتبة الحبيب، جعلتني أيها الحبّ غريباً عن ديني».
كتاب (حج در آئينهٔ شعر فارسى): ٢١.

(٢) «جعل الله مكة حرماً (آمناً) للعرب، وجعل عهدكَ وملكك حرماً للعجم، فخلُدَ كلّ من عاش عهدك، وفنيَ من لم ير هذا الحرم».
المصدر السابق.

به قـدس وكـعبه وجـودى ويـثرب وعـرفات
به حـق زمـزم وركـن ومـقام ومسـجد نـور[١]

وتجدر الإشارة إلى أنّ أغلب يوميات الحـجّ، التي زيّـنت المكـتبة الأدبـية الفارسية بعد ناصر خسرو هي تلك التي تعود إلى عهد الصفويين ثم القاجاريين؛ وذلك للتطور الثقافي الذي بدت ملامحه واضـحةً عـلى المجـتمع في ذلك العـصر، وللدافع الأدبي الذي كـان مسـيطراً عـلى الأشـخاص وعـلى مخـتلف الطـبقات الاجتماعية، خاصةً العلماء والمثقفين، وكذلك أصحاب المناصب الحكومية، وشغفهم في تدوين الأخبار والمعلومات المتعلقة بـالحجّ، وتسـجيل خـواطـرهم، وكـتابة ذكرياتهم الحلوة منها والمرّة. ولا ننسى ما للتخصّص العلمي والميول الفكرية لدى الكتّاب من أثر واضح وسمة مميزة تضع بصماتها بوضوح على يومياتهم المكـتوبة. فمنهم من عمد إلى جمع المعلومات التأريخية، ومنهم من ركّز اهتمامه عـلى النـاحية الجغرافية. ومن الكتّاب من أخذ في وصف المنازل والأماكن في الطريق إلى الحرم المكيّ، في حين تطرّق آخرون إلى بيان الأوضاع الاجتماعية للناس في تلك الفترة والإشارة إلى نماذج من سلوكهم. لكن الوجهة الرئيسية لأغلبهم كانت تتجه نحـو إرشاد الحـجيج من بعدهم؛ ليتفادوا قدر الإمكان المشاكل والصـعوبات التي قـد تصادفهم في رحلتهم إلى الديار المقدسة.

ومهما يكن من أمر فإنّ الاختلاف الموجود بين الرّؤى لدى مؤلفي اليوميات أصبح العامل الأساس، الذي ساعد في جمع قدر لا يُستهان به من المعلومات حول حقبة معينة من الزمان. فمثلاً كان يضطرّ بعض الرّحالة إلى البقاء مدة أطول في محلّ

(١) «وحقّ الموقف في عرفات وعرصاتها والحشر والنشر والبقاء واللقاء والحور والقصور، وقدسية الكعبة وجبل الجودي ويثرب وعرفات، وزمزم والركن والمقام ومسجد النور».
المصدر السابق.

أو مكان ما أثناء الطريق؛ وذلك لعدم توفّر وسائط النقل السريعة كما هو الحال في عصرنا الحاضر، وكذلك لندرة الطرق الواصلة بين تلك الأماكن، وهو ما اضطرّهم للمكوث أطول فترة ممكنة في تلك المناطق التي نزلوا فيها وجعلهم يتعرّفون عليها وعلىٰ أهلها فراحوا يدونون أسماءها وأسماء المناطق المجاورة لها وما فيها من آثار ومعالم وكتابة خصوصياتها وتثبيت كلّ ذلك على صفحات مؤلفاتهم. ومع ذلك، فقد دوّن بعض المؤلفين الأسماء بصورة مغلوطة، أو اشتبهوا في بيان الخصائص الأخلاقية والاجتماعية لسكّان تلك المنطقة أو المدينة أو القرية في ذلك الزمن. ويرجع السبب في ذلك إلى حصول أولئك الرّحالة على تلك المعلومات من أشخاص غرباء أو أمّيّين أو لا يملكون المعلومات الكافية والمطلوبة. ولحسن الحظ، فإنّ مثل هذه الحالات من الأخطاء يمكن تصحيحها بالرجوع إلى المصادر التأريخية الموثوقة.

هذا وتمتاز بعض اليوميات بخصائص وميزات معينة؛ وذلك لكونها مصاغة بشكل أبيات شعرية. ويمكن الإشارة إلى كتاب (فتوح الحرمين) لـ(محيي اللاري) ـ القرن العاشر ـ؛ ومنظومة لسيدة إصفهانية (في القرن الثاني عشر) باعتبارهما أهم اليوميات على هذا الصعيد.[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الكثير من الرّحالة عمد إلى تخصيص الجزء الأعظم من يومياته؛ لبيان الصعوبات والمشاكل الكبيرة في ذلك الزمان. ولا يخفى ما لذلك من أهمية كبيرة خاصة بعد مقارنة تلك الحالات مع الواقع الموجود في وقتنا الحاضر. لكن كل ذلك لم يكن ليمنع الحجيج من شدّ رحالهم إلى تلك الديار المقدسة وأداء مراسم الحجّ؛ تلك الفريضة الإلهية المقدسة، لِما كانوا يحملونه من حبّ لها وتعلّق بزيارة ما في تلك البلاد من آثار وأماكن تهفو إليها قلوب المؤمنين.

(١) قام الشيخ الفاضل رسول جعفريان بتحقيق هاتين اليوميّتَين، وتمّ طبعهما.

فقد أنشد الشاعر حافظ الشيرازي:

در بيابان گر بـه شـوق كـعبه خـواهـى زد قـدم
سرزنش‌ها گر كـند خـار مـغيلان غـم مـخور(١)

وأما نحن، فهدفنا من كتابة هذه السطور هو سرد قسم من تلك المشـاكـل والصعوبات التي كانت تواجه الحجيج في رحلتهم إلى الديار المقدسة، وما لاقـوه من مِحَن وشدائد، مستندين علىٰ أقوال الرّحالة أنفسهم:

١ ـ صعوبة الطرق والمواصلات:

إنّ صعوبة الطرق والمواصلات هي في الواقع واحـدة مـن تـلك المشـاكـل الرئيسية، التي كانت تواجه الحاجّ في الزمن الغابر. وقد ورد ذكـر ذلك بـوفرة في يوميات الرّحالة وأشعار الشعراء الفرس، فقد أنشد الخاقاني البيت التالي واصـفاً ذلك بقوله:

گـر زخـم يـافته است از رنـج بـاديه ديدار كعبه مرهم راحت‌رسان شده(٢)

وفي أبيات أخرى يصف الشاعر نفسه بعضَ ما يُعانيه فيقول:

سـاربانا بـه وفـا بـر تـو كـه تـعجيل نـماى
كــز وفــاى تــو زمـن شكـر مـوفا شـنوند
حـــاش لله اگـــر امســـال ز حـــج وامـــانم
نـز قـصور مـن وتـقصير تـو حـاشا شـنوند

(١) «إن كنتَ تريد قَطع الأشواط والسّير في البرّيّة شوقاً للوصول إلى الكعبة، فلا تَخشَ ملامة أحد ولا تحزن». ديوان (حافظ): ١١٢.

(٢) «إذا كان ما ألاقيه من صعوبات في طريقي إلى الكعبة أمراً لا يُمكن احتماله، فإنّ رؤيتها هو البلسم الشـافي الذي يُريحني ويزيل عني ثقل تلك الصعوبات».

دوستان يافته ميقات وشده زى عرفات
من به قيد و ز من آوازه به بطحا شنوند[١]

وقال شاعر آخر هو (أنوري) ـ م ٥٨٣هـ:

خوان خواجه كعبه است و نان او بيت الحرام
نيک بنگر تا به كعبه جز به رنج تن رسى
بر نبشته بر كران نان او خط سياه
لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفسِ[٢]

وقال الشاعر (خواجوى كرمانى) بهذا الخصوص أيضاً:

به راه باديه هر كَس كه خون نكرد حلال
حرام باد مر او را وصال بيت حرام[٣]

وأما (مولوي) فقد أنشد الأبيات التالية:

عزت مقصد بود اى مُمْتَحَن پيچ پيچ راه و عقبه و راهزن

---

(١) «أيها الجَمّال! عجّل بالرحيل وأوفِ بوعدك، ولك مني جزيل الشكر. وإن عجزتُ عن الذّهاب إلى الحجّ هذا العام (لا سمح الله) فليس ذلك لتقصير مني ولا منك. لقد وصل الأصحاب الميقات ووطأوا عرفات، في حين ما زلتُ أسيراً، أقطع طريق البطحاء».
ديوان الخاقاني: ١٠٢.

(٢) «إنّ مائدة الخواجة هي الكعبة وخبزها البيت الحرام، فتأمّل فإنّكَ لن تصل إلى الكعبة إلا بتحمّل المشاقّ. فقد كُتِبَ علينا بقلم غليظ: لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفسِ» اقتباساً من الآية الكريمة ٧ من سورة النحل.
كتاب «حج در آئينهٔ شعر فارسى»: ٤٤.

(٣) «حرام على مَن لَم يُرِق دَمَه وهو في طريقه نحو الكعبة وصال بيت (الله) الحرام».
ديوان (خواجوى كرمانى): ٣٣.

عـــزت كـعبه بـود آن نـاحيه دزدى اعـراب و طـول بـاديه[١]

ويقول الشاعر المعروف (سعدي):

ســاربانا جــمال كـعبه كـجاست كـــه بـــمرديم در بـيابانش[٢]

وكذلك أنشد الشاعر (جامى) يقول:

گر آرى رو در آن كـعبه چـو ريگ گـرم زيـر پـا
ســپردن بـايدت ســر كـوه آتش در بـيابانش[٣]

ولا يخفى أنّ إحدى المشاكل المستعصية، التي يواجهها الحجيج في الطريق إلى مكة هي هبوب الرياح السود الحارّة والخطِرة المعروفة بـ(السموم)، وهي ريـاح طالما جلبت المشاقّ لهم، وربما تسببت أحياناً في موت العديد منهم.

وكتب مؤلف كتاب (تمدّن اسلامى) «الحضارة الإسلامية» في معرض حديثه عن المهالك، التي تصادف الحاج في طريقه نحو الكعبة، يقول:

«هبّت عام ٤٠٢هـ ريح سوداء على قافلة الحجيج، فطمست بهبوبها مصادر المياه، فهلك معظمهم من جرّاء ذلك، حتى قـيل: إنّ كأس المـاء صـار يُـباع بمـئة درهم.»[٤]

---

(١) «إنّ عزّة المقصد أيّها المُمتَحَن يكمن في تلافيف الطريق وعـقباته، وقُـطّاع الطـرق. واعـلم أنّ حبّ الكـعبة ومعزّتها عندك يُحتّمان عليك تحمّل اللصوص والبدو وأعباء الطريق» [المترجم].
شرح (مثنوى مولوى) للعلامة الجعفري ١٢: ٤٣٢.

(٢) «يا جمّال! أينَ جمالُ الكعبة؟ لقد فدينا أرواحنا في صحرائه».
غزليات (سعدى): ٢١٥.

(٣) «لا تُبال بحر الحصى تحت قدميك. فلو أردتَ الوصول إلى الكعبة؛ عليك أن تتحمّل جبالاً من النار».
ديوان (جامى): ٤٩.

(٤) تمدّن اسلامى ٢: ٥٤.

وذكر (مير سيد أحمد هدايتي) كذلك في يومياته:

«قبل يومين تعرّض ستون أو سبعون نفراً هنا (في جدّة) إلى السموم، وهلكوا جميعاً.»[١]

وأما الشاعر (نزاري) فقد وصف السموم في شعره بأنها أطيب من ظلال شجرة طوبى لِمَن يريد وصال حبيبه، وهو ما يدلّ على حبّه العميق للكعبة والرغبة الشديدة التي تحدوه للوصول إليها. فهو يقول:

رونـدگان ره كـعبه را ز غـايت شـوق

سموم باديه خوش‌تر ز سـايهٔ طـوبى[٢]

وأورد (سنائي) الشاعر المعروف بعضاً من مشاكل الطريق ومشاقّه في المقطوعة الشعرية التالية:

پـای چـون در بـاديهٔ خـونين نـهاديم از بـلا

هـمچو ريگ نـرم پـيش بـاد سـرگردان شـويم

زان يـتيمان پـدر گـم‌كرده يـاد آريـم بـاز

چـون يـتيمان روز عـيد از درد دل گـريان شـويم

از پـدر وز مـادر وفـرزند وزن يـاد آوريـم

ز آرزوی آن جگـربندان جگـر بـريان شـويم

هـمرهان حـج كـرده بـاز آيـند بـا طـبل وعَـلم

ما به زيـر خـاک در، بـا خـاک ره يكسـان شـويم

قـافله بـاز آيـد انـدر شـهر بـی‌ديدار مـا

مـا بـه تـيغ قـهر حـج كشـتهٔ غـريبستان شـويم

(١) «داستان باريافتگان»: ١٥٠.

(٢) الحج في مرآة الشعر الفارسي: ٤٨.

همرهان با سرخ‌رویی چون به پیش ماه سیب
ما به زیر خاک چون در پیش مه کتان شویم
دوستان گویند حج کردیم و می‌آییم باز
ما به هر ساعت همی طعمهٔ دگر کرمان شویم
نی که سالی صد هزار آزاده گردد منقطع
هم دریغی نیست گر ما نیز چون ایشان شویم[1]

ولا ريب في أنّ الطرق الجبلية، والمعابر الضيقة للوديان، والسبل المتعرّجة، والبراري الجرداء الخالية من الماء والخضرة؛ كلّ ذلك زاد من خطورة الوضع الذي كان يعانيه الحجيج.

وكان على الحجّاج الإيرانيين أن يسلكوا واحداً من الطرق الأربعة المعروفة إذا أرادوا الذهاب إلى الحجّ، وتلك الطرق هي:

○ طريق البحر، وذلك عن طريق إحدى الموانئ الإيرانية الواقعة على الخليج إلى ميناء (جدّة)، حيث يُنقَل الحجيج من ميناء (بوشهر) و(بندر عباس) و(بندر لنگه) وبعض الموانئ الأخرى نحو اليمن مروراً ببحر عُمان والمحيط الهندي، ثم الدخول إلى البحر الأحمر والرسوّ في ميناء (جدّة).

(١) «فلمّا أن وطِئت أقدامنا البادية بعد مشقة وجهد عظيمين، أصبحنا كرمال الصحراء التي تتقاذفها الرياح وترمي بها هنا وهناك. فتذكّرنا اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وشرعنا نذرف الدموع من الألم كاليتامى يوم العيد. ثم تذكّرنا آباءَنا وأمّهاتنا وأولادنا وزوجاتنا، فدخلت اللّوعة قلوبنا وأحرق الحزن أكبادنا. فأما الذين أدّوا فريضة الحج فقد بدأوا بالعودة إلى ديارهم وأوطانهم ترافقهم طبول الفرح وأعلام الفخر، وأما نحن فقد أصبحنا نحن والتراب سواء. وبدأت قوافل الحجاج تمرّ بالقرب منّا راجعة إلى بلادها، في حين ما زلنا نعاني وطأة العذاب والمرارة في الصحراء. فترى وجوه الذين حجّوا البيت زاهية في ضوء القمر، ووجوهنا نحن يعلوها لون الغبرة. فالإخوة فرحون بما نالوا ويتواعدون للمجيء ثانية، ونحن ما فتئنا أن أصبحنا لقمة سائغة لديدان البرّ والقفر. فياليتنا نكون من جملة تلك الألوف المحررة كلّ عام.».
ديوان (سنائي): ٤١٦.

○ وأما الطريق الآخر فهو الطريق المعروف بالجبل أو نَجد، ويبدأ من العراق إلى جزيرة العرب. وقد كان السير في هذه الطريق خطيراً للغاية، حتى إنّ بعض العلماء قام بتحريم السفر خلاله في ذلك الزمان. ومن ذلك ما أصدره المرحوم الشيخ فضل الله النوري المتوفى عام ١٣٢٠هـ بهذا الشأن.

○ طريق الشام، وهو الطريق الذي اعتاد الحجيج على السفر خلاله إبّان العهد الصفويّ وبداية العهد القاجاري. ويمرّ هذا الطريق بحلب ودمشق وصولاً إلى المدينة المنورة، وهو أطول من طريق نَجد، لكن وبسبب توفّر المياه وكثرة المراتع والأراضي الخضر فيه، يعدّ أقلّ خطورةً وأندر سوءاً من غيره.

○ طريق تركيا ومصر وجدّة، حيث كان الحجاج الإيرانيون ينطلقون في البدء من (بادكوبه) و (تفليس) ثم يسلكون طريق البحر الأسود إلى إسطنبول، ومن هناك يركبون الباخرة ويسيرون في البحر الأحمر حتى يصلوا إلى ميناء (ينبُع) أو (جدّة).

ويعدّ طريق الجبل أو نَجد الذي كان يُسيطر عليه آل رشيد من أصعب الطرق المذكورة وأخطرها؛ وذلك للضغوط والأذى اللّذين كان الحجيج يلاقيهما من أمير الجبل وأعوانه، ومن العشائر التي كانت تسكن تلك المنطقة، والذين اعتادوا الهجوم على قوافل الحجيج وسرقة أموالهم ونهب ممتلكاتهم، مما اضطر شهيد المشروطة في إيران المرحوم الشيخ فضل الله النوري إلى إصدار فتوى حرّم فيها السفر في ذلك الطريق. وجاء في نصّ الفتوى المذكورة ما يلي:

«... لقد ثبت لدينا اليوم أنّ السفر عن طريق الجبل ذهاباً وإياباً مظنون الضرر، مالاً وعرضاً ونفساً، بل هو مؤكّد الضرر. وعلى هذا فإنّ السفر في هذا الطريق حرام. فإن احتمل أحدهم الضرر أو قال بعدم وقوعه قطعاً، فلا أقلّ من أن نتّبع الاحتمال العقلائي، وهذا يكفي في حرمة الإقدام... ومن محاسن الصدف فإن العبد لله وخلال تشرّفي بزيارة النجف الأشرف والعتبات المقدسة سنحت لي

الفرصة للالتقاء بعدد من العلماء الأعلام وحجج الإسلام في تلك البقعة الشريفة، فألفيتُ أنّ جميع العلماء قد اتفقت كلمتهم على حرمة سلوك طريق الجبل ذهاباً وإياباً على نحو لا يقبل الشبهة بعد سماعهم لمظالم الحجيج وتراكم شهاداتهم حول ما حصل لهم. وهذا خير دليل على مصداقية هذا الحكم ومرضاة صاحب الشريعة عليه. وواضح أنّ مخالفة رأي هذا الجمع من العلماء هو أمر حرام في حدّ ذاته.»[١]

ولا شك في أنّ السبب الرئيس وراء هذا التحريم هو المخاطر التي قد يواجهها حجّاج بيت الله الحرام في ذلك الطريق وتعريض أموالهم للسرقة والإغارة والنهب والسّلب. وكذلك سوء معاملة الحملداريّة واضطرار الحجيج إلى دفع الرشوة لقطّاع الطرق لمنع أو تقليل تصرفاتهم اللاإنسانية معهم.

٢ ـ النّقليات الرديئة:

وأما المشكلة الأخرى التي يواجهها الحجيج هي رداءة وسائط النّقل. فقد كانت أغلب وسائط النّقل آنذاك هي الدّواب، خاصة الجِمال.

وقد كتبت ابنة (فرهاد ميرزا) في يومياتها تقول:

«... إنّ الحجيج يُعانون إمّا من قلّة الجِمال أو من سيرها البطيء وبشكل لا يمكن معه للقلم تصويره.»[٢]

وقال الحاج الشيخ (جعفر ترشيزي) يوماً لأمين الدولة: «إنّه بينما كنتُ على ظهر دابّتي مشغولاً بالتّهجد، والليل قد انتصف، فإذا بالسّرج يسقط من على ظهر الدابة، وإذا بي أسقط معه كذلك، وبهذا تخلّفتُ عن القافلة. لكن القدر ساعدني، حيث وجدتُ هِمياني قد سقط معي أيضاً. فوجدني عربيّ أسمر على هذه الحال، فرأف بي وترحّم على حالي، وأسرع إلى داره فرجع ومعه رجل آخر يجرّان

(١) كتاب (أداء الإيرانيين للحج في عهد القاجاريين)، لرسول جعفريان: ٢١.
(٢) مجلة (ميقات الحج)، العدد ١٩: ٧٨.

وراءهما جملاً. فأخذاني إلى مضيف القبيلة وبقيتُ لديهم أربعين يوماً أُعالَج من الكسور التي أصابتني. وبعد أن عوُفيتُ وتماثلتُ إلى الشفاء، أخذني ذلك العربي وأوصلني إلى النجف».[١]

ويُقال: إنّ معتمد السلطان، رئيس السّقاة عند ناصر الدين شاه، أوصى الزوّار الذين أرادوا السفر عِبر طريق الجبل وعلى لسان نائب الصدر عام ١٣٠٥هـ بقوله:

«على الحاج أن يكون قادراً على ركوب الهودج أو التّخت. ولا تنسوا أن تحملوا الماء معكم لتُزيلوا به مشقّة الطريق عنكم. وليعلم الذين يريدون السفر مترجّلين أنّهم إنّما يعرّضون أرواحهم بذلك إلى التهلكة، ولا يحق لهم أن يُصبحوا عِبئاً على الآخرين.»[٢]

وكتب (مير سيد أحمد هدايتي) يذكر بعضاً من مصاعب الطريق وقلّة الإمكانيّات، حيث قال:

«... فتحرّكت القافلة لأربع ساعات بقين لغروب الشمس، وعند الغروب وصلنا إلى وادٍ عريض وبدأنا بالصعود. وكانت الطريق زلقة بسبب الرمل الناعم، وقد تشابكت أنواع كثيرة من الأشجار على جانبي الوادي، خاصة شجرة (أم غيلان)، فكان الوادي يبدو وكأنه غابة كثيفة بأشجار خاوية. فوصلنا في أوّل الليل إلى سفح جبلٍ شاهق يُدعى (جبل غاير)، ولذلك يدعى الطريق من مكة إلى المدينة بـ(طريق غاير). فكان لزاماً علينا أن نعبر في ذلك الممر الضيّق والمُلتوي. فأمروا المسافرين جميعهم بالنزول عن الجِمال وجعلوها تسير في صفّ، الواحد تلو الآخر. ولم تكن معابر (جبل غاير) ضيقة وكثيرة الالتواء فحسب، بل صخرية

(١) (سفرنامهٔ أمين الدولة) ـ١٣١٦هـ ـ باهتمام (إسلام كاظمية): ٩٠.

(٢) كتاب (أداء الإيرانيين للحج في عهد القاجاريين)، لرسول جعفريان: ١٩.

وشديدة الانحدار وغير متناهية، بحيث تُزهق روح المسافرين وتقضي على ما بقي لديهم من الصّبر والعزيمة؛ فلذلك اضطررنا جميعاً إلى السير على الأقدام حتى صباح اليوم التالي. فكنّا نشاهد على جانبي الطريق وفي كلّ خطوة نخطوها جِمالاً ساقطة في جوف الوادي، إما ميتة أو تكاد. وقد اعتاد الجمّالون على نقل حمولة الجَمل الساقط من جمالهم إلى جمل آخر، وترك الجمل الساقط وحيداً في تلك المنطقة.»[١]

السفر بالباخرة:

وكان بعض آخر من الحجيج يضطر إلى السفر إلى الحجاز بالباخرة. وكانت البواخر قذرة للغاية وتفتقر إلى أبسط الخدمات الاجتماعية والمرافق الصحية. هذا من جهة، ومن جِهة أخرى فقد كادت أمواج البحر الهائج ودَواره تودي بالمسافرين إلى شفير الهاوية والهلاك. وفعلاً قضىٰ بعض منهم نحبه، وقذفوا إلى البحر، فحرم هذا المسكين من حجّ بيت الله الحرام.

وكتب (ظهير الملك) الذي وُفّق للحجّ عام ١٣٠٦هـ عن الحالة المزرية داخل البواخر، خاصة عند إحرام الحجيج بالقرب من (يَلملم) فقال:

«إنّ القذارة والوساخة تقطر من أبدان أصحاب البواخر والسفن. وهم الآن يتهيّأون للإحرام؛ فأيّ إحرام هذا الذي لا يلبسون فيه ما يستر أبدانهم، ولا وشاحاً يغطي رؤوسهم، وهم يغتسلون وعوراتهم مكشوفة لعدم وجود ما يسترهم؟! وأيّ غسل هذا الذي يؤدون؟! وأيّ أوانٍ وسخة يستخدمون؟! وأيّ ماء قذر به يغتسلون...؟! المكان كلّه قذر، سُبحان الله، إنّها مشكلة عويصة حقّاً!»[٢]

(١) «داستان باريافتگان»: ١٨٤.

(٢) يوميات ظهير الملك، باهتمام رسول جعفريان، (تراث اسلامى ايران)، المجلد الخامس: ٢٥٥.

وأما المشكلة الأخرى التي يواجهها الحجيج هي سوء معاملة أصحاب البواخر والسفن لهم، أو كما وصف (ميرزا عبد الغفار خان نجم الملك منجّم باشي) الذي كان يستخدم العمّال الأجانب، حيث قال: إنّ الحجّاج الذين كانوا يُضطرون إلى السفر إلى الحجاز عن طريق البحر، كانوا يعانون بشدّة من سوء معاملة أصحاب السفن وبعض المستخدمين لهم، إضافةً إلى أسلوبهم الفظّ وغير المهذّب. وكتب حول ذلك فقال:«كانت هناك باخرة تعود إلى ابن المرحوم الحاج زين العابدين، التاجر الشيرازي والمقيم في بومباي، وكان فيها مُستخدم أجنبي غير مؤدّب، وفاسد وطمّاع إلى حدّ بعيد. والمشكلة أنّ جميعهم يتظاهر بالإسلام، لكنّهم لا يتورعون عن فعل أي منكر وقبيح على الإطلاق، ويسرقون وينهبون بلا حدود. ومع أنّ الباخرة المذكورة كانت حديثة الاستخدام لنقل الحجاج وأمتعتهم، ومع أنّ صاحبها المسكين كان يجاهد؛ لكي تكون لباخرته سمعة طيبة حتى يستميل الحجاج لركوبها، ويجني ما قسمَ له الدهر من الأرباح، لكن، وعلى غير ما كان يشتهي، لم يكن الذين وكّلهم للإشراف على باخرته كفوئين ولا حريصين، فكانوا يزجّون بالحجاج المساكين داخل مخازن ضيقة وعلى أرضية الباخرة. ماذا أقول عمّا كان يلاقيه أولئك المساكين من صعوبات ومشاكل. كان كثير منهم يتعرض إلى الأمراض بسبب تلوّث الهواء في المخازن ونتانته. ولما لم تكن هناك أدوية ومواد صحية كافية، كان العديد من الحجّاج يقضي نحبه، وتُرمى جثته في البحر فيكون طعاماً للأسماك».[1]

٣ـ سوء معاملة الحملدارية (مسؤولي القوافل) للحجيج:

وأما المشكلة الأخرى التي كانت تُصادف الحجيج هي المعاملة غير الإنسانية لهم من قِبل بعض الحملداريّة والمطّوفين الذين كانوا يُرافقونهم في تلك الرحلة.

(١) مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ١٩: ١٧٤.

فالحملداريّة هم أشخاص يرافقون الحجّاج في رحلتهم، ويأخذون على عاتقهم الاهتمام بشؤونهم منذ خروجهم من محلّ سكناهم حتّىٰ عودتهم إليه كما هو المفروض، إلّا أنّهم ولغرض حصولهم على أرباح أكثر كانوا لا يتورعون عن أيّ عمل قبيح أو أذى. وبهذا الصدد كتب مؤلف كتاب (تير أجل در صدمات راه جبل) يقول:

«عَمدَت زمرة من العرب والعجم الذين لا ينتمون إلى أي دين أو مذهب، ممّن يسمون أنفسهم بالحملدارية، إلى استغلال عباد الله أبشع استغلال. هؤلاء الأفراد يطوفون مدن إيران وقراها كلّ عام، متلبّسين بلباس باطنه المكر والخداع، ويحاولون إقناع الناس البسطاء للسفر عن طريق الجبل، مُصوّرين لهم أنّه أفضل الطرق من حيث الأمان والهدوء وقِصَره ورُخصه، ويعدونهم عبر مواثيق غليظة بأنهم سيأخذونهم من محلّ سكناهم إلى مكة المكرمة ويعودون بهم في أحسن حال وراحة بال. لكن، وبمجرد وصولهم النجف الأشرف واستلامهم لثلث المبلغ المقرّر لهم، يقوم مناديهم وينادي أنّ أجرة الجلوس في الهودج مئتان وخمسون تومانا والركوب مئة تومان. فمن كان دفع أقل من ذلك حسب المكاتبة السابقة يقطعون منه الباقي في الطريق. فيصيح الحجيج ويمتعضون، فيقومون بإسكاتهم وتهدئتهم، فيرى الحاج المسكين نفسه قد دفع ثلث المبلغ ولمّا يبلغ مرامه. فإذا رفض الدفع لم يحصل على شيء سوى أمتعته، فيضطر المسكين إمّا إلى الاستدانة متحمّلاً الذلّ والعار، أو بيع أمتعته أملاً في الحصول على الراحة والاستقرار... وبعد الخروج من النجف واليأس من العودة إلى الديار، يقومون بالتضييق على الحجيج في المأكل والمشرب بشكل لم يره أذلّ الأسرى. فهم يضيّقون على الحجيج حتى في إعطائه الماء للطهارة والوضوء.»[1]

(١) كتاب (تير أجل در صدمات راه جبل)، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ٣٥: ٨٩.

وكتب الحاج (ميرزا علي الأصفهاني) حول سوء معاملة الحملدارية للحجيج يقول:

«إبتُليتْ إحدى النساء المحترمات، من العائلة المالكة في (تويسركان)، وهي شابة في مقتبل العمر، بالماليخوليا في مدينة (كظيمة) وبسبب ذلك، وضعت جنينها في الطريق ولمّا يبلغ السبعة أشهر. فعمد العكّام الظالم (على ما نُقِل) بدفن ذلك الجنين البريء حيّاً! وعلى أثر ذلك، وبسبب مشاهدة الأم لهذا المنظر، فقدت المسكينة عقلها، واختلّت أعصابها، واظلمت الدنيا في عينيها. فلو كانت هذه المجللّة المحترمة في وطنها وبين أهلها وأرادت الولادة لحفّ بها الخدم والحشم، ولتوفّرت لها كل أسباب الراحة والاستقرار، من القابلات وأدوات الولادة الكاملة والصحية، لكنها الآن تضع جنينها في وسط الصحراء، بعيدة عن أهلها، في هودج في وسط الطريق! يا إلهي! ما الذي حدث لأبناء عمومتها وأقاربها عند سماعهم عن حالة هذه المسكينة وكيفية وضعها لحملها، ودفن طفلها بهذه الكيفية؟! وها هي أسيرة المرض والألم، حتى لبّت نداء ربّها في الساعة الخامسة وستّ دقائق ليلاً، حيث نزلت عليها الرحمة الإلهية، ففارقت تلك العفيفة المحترمة هذه الحياة بهدوء وسكينة! لقد أدمت مصيبتها القلوب حقاً... وتمّ دفن تلك المرحومة في الصحراء تحت ثرى الغربة. لا حول ولا قوة إلا بالله.»[1]

وكان للمطّوفين أحياناً نفس الأسلوب الذي كان يستخدمه الحملداريّة مع الحجيج. فقد كانوا يُجبرون الحجّاج على دفع إتاوات ورشاوى، بعيداً عن أي مذهب أو دين.

كتب (نجم الملك منجّم باشي) حول ذلك فقال:

«جرت العادة على هذه الحال سنوات عديدة، حيث يقوم كلّ حاج بدفع

(١) (به سوى أم القرى)، يوميات (ميرزا علي الأصفهاني): ٢٠٦.

ريالين إفرنجيّين (ويعادل ذلك اثني عشر ألف دينار) إلى السيد حسن المطوّف ليقسمها بعد ذلك على الخدام والسدنة. فهذا الرجل المتوحش والقليل الأدب يقتحم هو وجماعة من الخواجات والعسكر خيم الحجّاج في أنصاف الليالي لتحصيل تلك المبالغ. ويقوم أحياناً بالإغارة ليلاً على الحجّاج وهم نيام لوحدهم أو مع عيالهم دون إذن وبلا وازع. ثم يبتزّون منهم المبالغ عنوة مستخدمين أخسّ الأساليب.»[١]

وكتبت ابنة (فرهاد ميرزا) كذلك في يومياتها تقول:

«اليوم، بقي بعض الحجيج في المدينة (المنورة) عند خروجنا منها؛ لأنهم دخلوها بينما كنّا نروم الخروج منها، ومنهم من جاء عن طريق (ينبُع) ومنهم من استطاع الفرار من (رابغ)، وقد أعطوا الحملدار مبلغ ألف ريال كإتاوة، فأخذها وهرب. وقطع بعض الرجال الطريق على الحجيج في (رابغ) وطالبوهم بدفع الإتاوة، ولما كان هؤلاء الحجيج المساكين قد أعطوا جميع أموالهم إلى الحملدار، فقد أُجبِروا على البقاء هناك، لكن بعضهم استطاع الفرار والخلاص من أيديهم. ويبدو أنّ الحجّاج الذين جاءوا عن طريق (ينبُع) قد قابلوا الشريف هناك. وقد أراد هؤلاء الأشرار من قبل تمرير هذه الحيل والألاعيب علينا يوم تحرّكنا من المدينة، وعندما لم يتمكنوا من ذلك معنا استغلوا هؤلاء الحجيج المساكين...»[٢]

٣ـ حيل الحملدارية وألاعيبهم:

يُمارس جماعة من الحملدارية بعض الحيل والخدع مع الحجيج أثناء مسيرهم إلى الحج. ومن جملة تلك الحيل، ما أورده صاحب كتاب (تير أجل در صدمات راه جبل):

(١) (سفرنامهٔ شيرين وپر ماجرا)، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ١٩: ١٨١.

(٢) (سفرنامهٔ مكه)، بقلم إبنة فرهاد ميرزا، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ١٧: ٩٢.

«**أولاً**: لمّا كان أغلب الحجّاج يفضلون السفر بطريق البحر هذه الأيام، وإنّ معظم حجيج البحر يصلون إلى مكة قبل حجيج طريق الجبل؛ لهذا يُحاول الحملدارية الوصول قبل الحجّاج إلى مكة خلسةً قبل يوم أو يومين متجاوزين بذلك الإحرام، فيرتدون أفخر الملابس ويقومون باصطياد ضحاياهم بلسان ناعم، خاصة القرويين والرعايا السّذج، فيعطونهم الجِمال ليذهبوا بها إلى منىً وعرفات. وبعد رجوع الحاج من هناك يُصفّون حسابهم معه وينتهي كل شيء حسب الظاهر. لكنهم في طريق العودة يطالبون الحاج المذكور بأجرة ركوبه الجمل الذي أخذه إلى منى وعرفات، ولا ينفع حينئذ صراخ الحاج عندما يريد إفهامهم أنّه قد صفّى الحساب مع أولئك الرجال وبضمنه أجرة ركوب الجمل المذكور. فيضطر المسكين إلى دفع الأجرة وقدرها تومان واحد مقابل كلّ جمل.

ثانياً: وقد يتّفق بعض الحملدارية مع هذا النوع من الحجّاج ويتمّ صفقته معهم شفهياً، ثم يقول الحملدار: الآن وقد تمّ كلّ شيء فليدفع كل واحد منكم (٤) تومانات ليطمئنّ قلبي! وفي الوقت المناسب، خاصة عند خروج الحجيج ورجوعهم وانشغالهم بعدة أمور، يأتي إلى الحجيج وهم في عجلة من أمرهم مع شخص يؤيّده كذباً أنّه يطلبه فعلاً، قائلاً لهم: إنّه اشترى من هذا الشخص بعيراً ويريد بعض المال منهم لأداء دَينه! فيقولون له: حسنٌ، اِعطه وسجّل ذلك على الحساب. فيقول مستعجلاً كذلك: لا وقت لدي الآن. تحاسبوا أنتم معه أو اعطوه ثلث المبلغ على الحساب! وعندئذ يعطونه أو يعطون المُرسَل من قِبل أمير الحاج مبلغ ليرة أو إمپريال واحد! وعند خروج الحجيج من المدينة واطمئنان الحملدار أن لا طريق للعودة أمام الحاج، تبدأ محاسبته ويبدأ بالمماطلة والتّسويف، ويصرخ الحاج! فإذا احتكموا إلى الشرع، يُؤمر الحاج بدَفع مبلغ ما إلى الحملدار. وهكذا، يجني الأخير بعض المال بهذه الحيلة وهي على أنواع كثيرة، لكننا سنكتفي بهذا المقدار.

ثالثاً: قد يحصل على الأغلب أن يدفع الحاج الإتاوة ويأخذ وصلاً بذلك، وعند المحاسبة ينكر الحملدار أنّه كان قد قبض من الحاج أيّ مبلغ، وأنّه (أي الحملدار) قام بإعطاء الوصل إلى الحاج الذي وعده بإعطائه الإتاوة فيما بعد. ثم يُقتاد المسكين إلى أمير الحاج فيخبره الأخير أنّ أي وصل لا يحمل ختمه يُعتبر باطلاً، وأنّ على الحجّاج أن لا يُعطوا أي مبلغ للحملدار دون علمه، ممّا يضطر الحاج المسكين إلى دفع تلك الإتاوة ثانية. فإذا كان الحاج ذا قوة وبأس، يقتادونه إلى الشرع، فيتمّ إرغامه على دفع المبلغ كلّه أو نصفه بعد القسم أو المصالحة!

رابعاً: يتعهّد الحملدارية في النجف أو مكة المكرمة في المقاولة التي تتمّ بينهم وبين الحجيج بالالتزام بأخذهم إلى المكان المقصود بمبلغ معيّن يتضمّن تحمّل الحملدارية كل المصاريف في الطريق ودون أيّ استثناء. وقد يُكتب ذلك بالتفصيل أيضاً، لكنّ الحملدارية لا يوفون بأيّ التزام يُذكر».[١]

٥ ـ المخاطر والسرقات:

يُعتبر قَطع الطريق أو السرقة من بين المشاكل الكبيرة الأخرى، التي كان يواجهها حجّاج بيت الله الحرام.

يقول الشاعرالفارسي الكبير (سعدي) في كتابه المشهور (گلستان): «كنتُ في أطراف مكة لا أقوى على المشي من قلة النوم، ومع ذلك قلتُ للجمّال: أتركني لحالي!».

پـاى مسكـين پياده چـند رود	**كـزتحمل سـتوده شد بُـختى**
تـا شـود جسم فـربهى لاغـر	**لاغرى مرده بـاشد از سـختى**[٢]

(١) كتاب (تير أجل در صدمات راه جبل)، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ٣٥: ٩٩.

(٢) «وترى هذه الرِجل المسكين تقطع الطريق حافية ؛ متحملة كل المشاق ، حتى يغدو الجسم الناصع ضعيفاً هزيلاً ، والجسم الضعيف يصير ميتاً من شدة الصعوبات ، وأما الإبل القوي فيمدح في هذا الطريق فقط» [المترجم].

فأجاب: يا أخي! إنّ الإحرام أمامك واللّص وراءك. فإذا ركبتَ نجوت، وإذا تخلّفتَ هلكت!»

وأما (مولوي) فقد أنشد الأبيات التالية لنفس الغرض:

عــزّت مــقصد بـود اى مُـمْتَحَن پــيچ پــيچ راه و عـقبه و راهـزن
عـــزّت كــعبه بــود آن نــاحيه دزدى اعــراب و طــول بـاديه[1]

وأنشد (جُنيد الشيرازي) البيتين التالين واصفاً اللّصوص وقطّاع الطرق:

مباز عشق اگرت طـاقت سـتم نـبود كه در طريق وفا جز بلا و غـم نـبود
حريم كعبهٔ مقصود بى حرامى نيست تو راكه خوف بود راه در حرم نبود[2]

ويصف (ميرزا علي الأصفهاني) اللصوص والإغارة عـلى أمـوال الحـجيج بقوله:

«بعد أن تحركنا من المدينة وسرنا مسافة قصيرة، لاحظنا أنّ الحملدار قـد انحرف في مسيره عن (مسجد الشجرة)، فبدأت الهواجس تنتابنا والأفكار تأخذنا في سبب عدم مرورنا بالمسجد المذكور. وقال مسؤولو القافلة: إنّه لا يمكننا المرور بمسجد الشجرة وإنّ علينا أن نُحرم بمحاذاته.

فنزلنا عن جِمالنا واغتسلنا وأدّينا تلبية الإحرام. فبينما كان جمع منّا مشغولاً بالتلبية، وكان جمع آخر قد انتهى مـن ذلك، تـغمرنا حـالة الخشـوع والخـضوع والتّوجه نحو البارئ عزّ وجل، تعالت أصوات الطلقات النـارية خـلف القـافلة،

(١) مرّت ترجمة هذين البيتين في ص ٥.

(٢) «لا تخسر الحبّ إذا لم تكن قادراً على تحمّل الظلم والقهر، واعلم أنك لن تصادف شيئاً في طريق الوفاء إلا البلاء والهمّ. واعلم كذلك أنّ حرم الكعبة لا يخلو من اللّصوص، فإن كنت ممّن يخاف فلن تجد طريقك إلى ذلك الحرم.».

ديوان (جُنيد الشيرازي): ١٩.

واستعرت نيران الحرب والفتنة.

فأسرع الحجيج المساكين إلى ركوب جمالهم وهم حفاة وانطلقوا هاربين، في حين ما انفك الغزاة يواصلون إطلاق النيران. وأما المسؤولون عن القافلة، فلكي يُبعدوا عن ساحتهم كلّ شبهة، راحوا يتحرّكون هنا وهناك متظاهرين بالدفاع والمقاومة. فيما تزايد إطلاق العيارات النارية من الجبال المحيطة. وكانت قافلة الحجيج بالطبع هي الهدف المقصود. فجفلت على أثر ذلك بعض الجمال وتفرّقت مرتبكةً هنا وهناك، وسقطت الكثير من الهوادج من على ظهورها. فاستغلّ الجمّالون الخبثاء هذا الوضع وبدأوا بنهب أموال الحجيج. بل وكانوا يُسقطون الأحمال والحجّاج المساكين من على ظهور الجمال. وما فتئت أعداد اللصوص تكثر وتزداد، وبدأت الطلقات النارية تتجه نحو القافلة من ثلاث جهات. وهكذا تجسّمت أمامنا أبشع الأعمال. فالجمال بدأت بالهروب واحدة تلو الأخرى، والأمتعة والهوادج طريحة الأرض، وظلّ المعتمرون المحرمون يتراكضون على صخور الصحراء وأحجارها، ويدوسون الأشواك حفاة، حيارى لا يعلمون شيئاً عن مصيرهم.

وأما النساء المجلّلات، فقمن بالهروب حفاةً على غير هدًى كذلك، وهنّ لابسات لباس الإحرام، ينشدن الخلاص والنجاة. لكن الغزاة الطغاة لم يكونوا ليعطوا أحداً فرصة الهروب أو الفرار. الحقّ أنّ ذلك المنظر كان يمثل مشهداً من مشاهد يوم القيامة! فالطلقات النارية تمرّ بالقرب من آذان المسلمين، الذين تعالت صيحاتهم وأصواتهم وملأت أركان الصحراء قائلين: وا محمّدا! كان مثلهم كمثل قطيع الغنم الذي تلاقفته الذئاب. وسقطت جموع الأطفال الأبرياء والمرضى المساكين والنساء الخائفات تحت أقدام الجمال، وظلّوا هدفاً للطلقات النارية وهم محاصرون بين الجبال وحجارة الصحراء. كان ذلك تقدير العزيز القهار! وظلّت الحالة هكذا مدة ثلاث ساعات تقريباً، وتمّ للصوص ما أرادوا من تخويف الحجيج

برصاصاتهم، ومال مقدّم القافلة نحو وادٍ قريب على الجهة اليمنى من القافلة. فاشتدّ الأمر هناك، وسقط الكثير من الهوادج على الأرض، فكان حالها بشكل لا يمكن للقلم أن يوصفه. الحقّ أنّ ذلك المنظر كان يعبّر عن مصداق الآية القائلة ﴿يَوْمَ يَفِرّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[١]. إضافةً إلى كل ما لاقاه الحجيج من الخوف والرهبة والتعب والهروب حفاةً على صخور الصحراء وحصاها، فقد أخذ الظمأ منهم كلّ ما ادخروه من طاقة، ويبست أفواههم حتى من اللّعاب. وسمعتُ السيد المسكين يقول: لم أعد أرى شيئاً، واظلمت السماء والأرض أمامي.

گر نويسم شرح آن بى حد شود مثنوى هفتاد من كاغذ شود[٢]

وعلى كلّ حال، فقد وصل الجمّالون الزنادقة إلى ما أرادوا ولعبوا لعبتهم مع الحجّاج، فكانوا يُلقون الحاج من على ظهر دابّته ويسرقون متاعه. وأضحت تلك الأجساد الرقيقة الوديعة طُعماً لرصاص أولئك الظالمين الذين انشغلوا بالنهب والسّلب، وانهمك كلّ امرئٍ فيما يَعنيه، فلا يُعلم منهم الحي ولا الميّت. وأخيراً، نزلنا من ذلك الوادي وإذا بمحيا المدينة الطيبة يتجلّى من بعيد، ولاحت السكك الحديدية، وعلم عساكر القطار بالأمر فهرعوا للنجدة، واقتتلوا مع أعداء الدين وتمكنوا من طردهم والحيلولة بينهم وبين ملاحقة قافلة الحجيج الذين تطلّعوا إلى المدينة، بين مسلوب ومنهوب ومجروح وجائع وظمآن وحافٍ وعريان، في حال يُرثى لها. ونزلوا بظهر المدينة، بينما ظلّ كثيرون منهم في ذلك الوادي المهول، يتخطّفهم الموت من كلّ جانب، لا يقوى واحد منهم على السير. وكانت حصيلة الحادثة أن سقط الكثيرون برصاص الأعداء، وجُرِح عدد آخر، ونُهبت اللّيرات والأمتعة والصكوك والذهب والحليّ والسجّاد، وأشياء أخرى لا يمكن للقلم أن

(١) سورة (عبس): الآية ٣٤.

(٢) «ولو أردتُ شرح ذلك (المنظر) وتدوينه على الورق لاحتجتُ إلى سبعين منّاً من الورق.».

يحصيها جميعاً...»[١]

وقد أشارت ابنة (فرهاد ميرزا) أيضاً إلى بعض الجرائم التي ارتكبها أولئك اللصوص الجفاة وقُطّاع الطرق الأجلاف، وتصرّفهم اللّاإنساني مع الحجيج، فقالت:

«تخلّف عنا يوم الأحد حاج من جرجان، وكان لزوجته كذلك هودج في قافلتنا، فلما وصلنا منزلاً في الليل، علمنا بأنه ظلّ في الصحراء. فبعث المسؤولون عن القافلة رجلاً للبحث عنه، فعاد به صباح يوم الثلاثاء. ثم تبيّن بعد ذلك أنّ فارسين من الأعراب وآخر كان راجلاً قد سألوه عن سبب تخلّفه عن القافلة. فأجابهم هذا المسكين التعيس أنّ السبب في ذلك هو بعيره الذي توقّف ولم يعاود السير! فقالوا له: إذا أعطيتنا نقوداً فسوف نحمل لك أمتعتك. على كلّ حال حمل أولئك الرجال أمتعة هذا الحاج على جمالهم وبدأوا بالسير ببطء حتى اختفوا عن أنظار ذلك المسكين. فاضطر الرجل إلى السير مشياً وكانت معه ستون تومناً، أخذوها منه وقسّموها عليهم أمامه، وفكّروا في النهاية التّخلّص منه بقتله، فندب المسكين حاله وتمسكن أمامهم، فانصرفوا عن قتله، واستعاضوا عن ذلك بضربه حتى كاد يهلك، ثم خلعوا عنه ملابسه الداخلية واخلوا سبيله قائلين له: اِذهب في هذا الاتجاه إلى أي مكان تريد! فقضى الحاج المسكين تلك الليلة في عرض الصحراء يبكي ويصيح حتى اليوم التالي؛ فعثر عليه الرجال الذين ذهبوا للبحث عنه، فأركبوه بعد أن كان على شفير الهاوية.»[٢]

وتضيف ابنة (فرهاد ميرزا) في مكان آخر من يومياتها قائلة:

«تحرّكنا يوم الخميس، لخمس ساعات بقين على الغروب، من (بئر خلع). وقبل وصولنا المنزل في الليل، تعالت الأصوات من الجهات الأربع قائلة:

(١) (سفرنامهٔ حج) لميرزا علي الأصفهاني: ١٩٣ و ١٩٤.

(٢) (سفرنامهٔ مكه) بقلم ابنة (فرهاد ميرزا)، مجلة (ميقات الحج)، العدد ١٧: ٧٤.

لصوص... لصوص!. ثم تبيّن أنّ اللصوص قد سرقوا هِميان ابن الحاج عبد الهادي الإسترابادي الذي يُتاجر في بغداد، مع رزمة ثيابه من تحته. فكانوا يرمون بالحجارة على المشاعل لإطفائها؛ ليتمكنوا من التّحرك خلال صفوف الحجيج ويقوموا بهذه الحركات، كما قيل عن (حسين كُرد) في الكتب من أنه...»[١]

ثم تُضيف:

«وما إن وصلنا منزل (ربّ الحسان) وأراد الحجّاج المساكين أخذ قسط من الراحة حتى ارتفعت الأصوات تصيح: لصوص... لصوص! فعلمنا بعد حين أنّ متاع (حسن خان نامي) من أهالي شيراز، قد سُرِق. لكن (حسن) هذا أبدى شجاعة وجرأة، حيث طارد اللّص، والليل قد بلغ منتصفه، لكن اللّص استطاع أن يضربه على رأسه، فرجع المسكين برأس مشدوخ. وقد كان متاع (حسن خان نامي) يحتوي على شيء من الرّز والدقيق وملابسه بالطّبع. وهكذا فلم يبقَ له إلا رأسه المكسور...!»[٢]

وقد أورد (ميرزا داود) وزير الوظائف آنذاك وقائع فظيعة في يومياته تُشير بوضوح إلى أنّ القتل والنّهب والإغارة على أموال الناس كان أمراً عادياً. يقول ميرزا داود:

«ومن الحوادث المروعة التي حصلت في الطريق في ذلك الوقت، هي أنّه كان يوجد شاب (وهو ابن أخي مقوّم باشي)، وكان يتمتع بشخصية متميزة بين الحملدارية. وقد اعتاد هذا الشاب الوسيم على ركوب الفرس. وكان يوجد في (بئر جديد) مكتب للتلغراف وبئر كبيرة وخمس خيام يسكنها الأعراب. وتقع (بئر جديد) على بعد منزلين من (هدية). وصلنا هناك بعد غروب الشمس بساعة،

(١) المصدر السابق: ١٧.

(٢) المصدر السابق: ٨٥.

وكان الشابّ المذكور قد وصل قبلنا إلى هناك بوقت قصير، وذلك لشراء العلف من أولئك الأعراب، فحدث جِدال بينه وبين البائع حول سعر العلف، فضرب الشابُ الأعرابيَ على رأسه بعود خيزران كان في يده، فبادر الأعرابي بضرب الشاب بطلق ناريّ من بندقية اعتاد أولئك الأعراب حملها معهم، وأصاب ظهر الشاب فسقط مقتولاً في الحال. ثم سارع الأعرابي إلى جبل لا يبعد عن المكان سوى مئة قدم وجلس هناك يراقب قافلة الحجيج، بينما انشغل أهله وأمّه بالبيع والشراء، وكأن شيئاً لم يحصل. وخلال هذه المدة تمّ غسل جثة الشاب ودفنها، وغاب الأعرابي عن الأنظار!

فعمد (عبد الرحمن پاشا) إلى القبض على رجلين من الأعراب وزجّهما في السجن ساعات قليلة. وقيل: إنّه قد أُصدِرَ أمرٌ بالقبض على القاتل وإرساله إلى الشام بعد عشرين يوماً، لكن لا أحد يعلم متى سيتمّ تسليم المطلوب! لقد قُتِل الشابّ المسكين دون أيّ مبرّر. وبالرغم من محاولات (السلطان) لإشاعة الأمن والاستقرار، إلّا أنّ حالة الفوضى واللّاأمن ما زالت تسود الوضع هناك. ويعمد الأعراب اللصوص إلى مطاردة القوافل حتى (مَعان) للتربّص بمن يتخلّف عن القافلة، أو القيام بسرقة متاع شخص ما في ظلمة الليل. فما فُقِد لن يُستردّ أبداً!»[1]

٦ـ مشكلة الحجر الصحي الذي يواجهه الحجيج:

توجد في المدن الواقعة على الطريق، وكذلك في بداية الدخول إلى (جدّة) أماكن وُضِعت خصيصاً لحجر الحجّاج صحيّاً. حيث ينزل الحجيج من المراكب وتبدأ عملية تعقيم ملابسهم وأمتعتهم، وإجراء الكشوفات الصحية عليهم بعد ذلك، فإذا اكتشفوا عند أحدهم علامة لمرض ما، يقومون بحجره صحيّاً ولعدة

(١) (سفرنامهٔ ميرزا داود) وزير الوظائف: ١٧٢.

أيام. وبالرغم من أهمية هذا العمل وضرورته، فقد كانت تلك مشكلة حقيقية يواجهها الحجيج هناك، وذلك بسبب سوء معاملة المسؤولين عن الشؤون الصحية للحجيج والعقبات التي يضعونها أمامهم. إضافة إلى التأخير الزائد عن حدّه في الحجر الصحي، إلى درجة يحاول معها بعض الحجّاج الهروب من المسؤولين والنجاة بأنفسهم.

وحول هذا الموضوع كتب (الجزائري) في يومياته ما يلي:

«كانت إحدى المشاكل التي تصادف الحاج الإيراني وغير الإيراني فيما يتعلق بمسألة الحجر الصحي، هي إيقافهم عراة في طابور أمام الطبيب واضعين ملابسهم وأمتعتهم في صندوق كبير، ثم يضعون ذلك الصندوق في جهاز للبخار حتى يتم تَعقيم الملابس التي فيه تماماً، ثم يحجرون على الحجيج هناك عدة أيام، قد تصل أحياناً إلى عشرة أيام أو اثني عشر يوماً، ثم يسمحون لهم بالعودة بعد ذلك إلى البواخر من جديد.»[١]

وعند عودة القوافل من الحجّ، يتعرّض الحجيج في بعض المناطق أحياناً إلى التأخير بسبب إجراء الحجر الصحي عليهم من جديد. وقد كتب (اعتماد السلطنة) في تقرير له عن حجّه في عام ١٣٦٣هـ حيث قال:

«يوضع كلّ من يأتي عن طريق الحجاز والشام في حجر صحيّ مدة اثني عشر يوماً، سواء عليه أكان ينتمي إلى طبقة اجتماعية راقية أم متدنية. وقد عُيّن ناظرٌ لهذا الغرض؛ يقوم بأخذ مبلغ قدره اثنان وعشرون قرشاً ونصف القرش (أو ما يُعادل أربعة آلاف وأربعمائة دينار إيراني) عن كلّ مسافر يُطلَق سراحه من الحجر الصحيّ.»[٢]

(١) كتاب (حج گذاري إيرانيان در دورهٔ قاجار ـ أداء الإيرانيين لمراسم الحج في العهد القاجاري): ١٤.

(٢) كتاب (سفرنامهٔ ميرزا علي خان) بقلم اعتماد السلطنة: ١٤١.

٧ـ المعاملة السيئة التي يتلقاها الحجيج عند وصولهم جدة:

لا شكّ في أنّ أهمّ المسائل التي يجب مراعاتها في تاريخ السياحة والسفر هي معاملة المسؤولين للسيّاح أثناء وصولهم إلى البلد المقصود. ولا ريب كذلك في أنّ المعاملة السيئة التي يتّبعها بعض المسؤولين في ذلك البلد، واستخدامهم العنف والقسوة في التعامل مع السّياح ستترك آثارها السلبية عليهم، فيعودوا إلى أوطانهم محمّلين بذكريات لا تسرّ، وقد يعمدون إلى كتابة كلّ ذلك في مؤلَّف ويضعونه في متناول أيدي الأجيال القادمة من بعدهم.

لقد وصف (ميرزا داود) وزير الوظائف آنذاك طريقة وصوله إلى جدة أيضاً حيث قال:

«وصلنا الجمارك في الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة الأحد بعد عناء وتعب شديدين، لقد كان المنظر هناك يشبه يوم المحشر إلى حدّ كبير، فالزحام خانق في البواخر وفي الممرات الخاصة بالذهاب والإياب، وقد قيل لنا: إنّ أحد الشيوخ من (بخارى) قد سقط تحت أقدام الجمع الحاشد وقضى نحبه! الحقّ أنه لم يكن هناك مكان في هذا العالم أسوأ من (جدّة)، حيث يؤخرون الناس مدة من الزمن في البواخر وخاصة الرعايا الإيرانيين، حيث يبعث سعادة (مفخم السلطنة)، أخي السفير الكبير (البرنس أرفع الدولة) مبعوثاً من قِبله، فيصعد المبعوث المذكور إلى ظهر السفينة وهي راسية ويقوم بعدِّ الحجّاج الإيرانيين؛ ليأخذوا خمسة قروش عن كلّ مسافر من صاحب الطرّاد. وأما الرعايا الروس والإنكليز وغيرهم فيؤخذ من كلّ واحد منهم قرشين اثنين فقط، وأمّا الإيرانيون فيأخذون منهم سبعة قروش ونصف القرش عن كلّ واحد، ولا ينفع حينئذ صراخ صاحب الطراد وهو يقول: إنّ في الطّراد اثنين وخمسين مسافراً وحسب! فالمبعوث عن القنصل يلحّ قائلاً: بل هم سبعة وخمسون مسافراً، وأنت معهم كذلك، فيكون المجموع ثمانية وخمسين!

ثم يُدخلون المسافرين بعد ذلك إلى مكان ضيّق يحيط بهم جدار وموانع

خشبية وقضبان حديدية، ويسمونه بـ(القفص)، وهذا القفص هو مكان الحجر الصحيّ. يأخذون من الرعايا الأجانب مبلغ قرشين ونصف القرش فقط، بينما يقبضون من الإيرانيين ما يعادل نصف مجيدي على حساب الحجر الصحيّ المذكور. ومن جهة أخرى يقوم حضرة القنصل الإيراني بتقاضي خمسة قروش من كلّ حاج إيراني مسكين، مُسلِّماً إيّاه ورقة صغيرة كإيصال للمبلغ، وعند الباب يقوم شخصان بأخذ هذه الورقة من صاحبها ثم يُخرجونه من ذلك القفص ليُدخلوه قفصاً آخر لا يقلّ عن الأول. فالزحام هو هو، والحجيج المساكين عراة في ذلك الجوّ القارس. فيقوم أحدهم بأخذ البطاقة ومبلغ قرشين عن كلّ واحد كذلك ويسلمّه ورقة صغيرة؛ يأخذونها منه عند الباب. وعند ذلك فقط يُسمَح للحاج بالخروج من الحجر الصحيّ! وبعد هذا، يستلمه الحمّال ثم يذهب به إلى مقرّ إقامته. ويطالب الحمّالُ الحاجَ هناك بمبلغ تومانين اثنين مقابل حمله الأمتعة. وقلنا للحمّال مرّة: إنّ هذا كثير! فأجاب بالعربية: مكتوب على...! ثم يتبيّن أنّ هذا الحمّال يقسّم المبلغ المذكور ويعطي نصفه إلى السيّد القنصل! مسكين هو الحاج الإيرانيّ!»[1]

٨ ـ ابتزاز الحجيج:

إنّ أهم مشكلة تصادف الحجّاج في رحلتهم هي تعوّد الحملدارية ومسؤولي القوافل، والعشائر في الطريق، ورجال الأمن على ابتزاز الحجيج وأخذ الأموال منهم، ويسمون ذلك بالـ(خاوة) أو (اخوة).

وكتب محمد ولي ميرزا القاجاري في عام ١٢٦٠هـ حول ذلك فقال:

«... في طريق الجبل يقومون بأخذ (٧٢) إخوة (وتعادل الإخوة الواحدة غازيين اثنين أو ٨٥٠٠ دينارٍ متداولاً آنذاك)... ويأخذون من الأعاجم (غازيين اثنين) ومن العرب غازياً واحداً، ونصف غازي من المرأة العربية وغازياً واحداً

(١) (سفرنامهٔ ميرزا داود وزير الوظائف): ٨٩.

من المرأة الفارسية، بينما لا يأخذون من الهندي ولا الدرويش شيئاً. ويعادل الغازي (٤٢٥٠) ديناراً متداولاً.»[١]

وذكر مؤلّف كتاب (تير أجل در صدمات راه جبل) ما يشبه الكلام الذي ذكره محمد ولي ميرزا، حيث قال:

«يقوم شيخ الجبل خلال ذهابه إلى مكة المكرّمة بأخذ حوالى (٣٠) تومناً من الحاج الإيراني إن كان رجلاً، بينما يأخذ من المرأة الإيرانية والرجل العربي نصف ذلك المبلغ، في حين يأخذ ربع المبلغ المذكور من المرأة العربية، ولا يأخذ من أهل السنّة شيئاً، أو ربما أخذ شيئاً قليلاً. وعند العودة يأخذ من كلّ واحد حوالى (١٠) تومانات دون استثناء. ويتمّ تعيين شخص من قِبل شيخ الجبل مع جماعة من قطّاع الطرق لعدّ أنفار الحجّاج، بعد غلقهم معظم الطرق؛ لكي لا يتسنى لأحد الهرب من أيديهم. وأما الحملدارية، فلكي ينجوا من دفع تلك (الخاوة)، يقومون بممارسة شتى الأفعال مع الحاج المسكين. فيغيّرون هيئة الرجل الفارسي ليبدو عربياً، ويُلبسون بعض الرجال ثياب النساء، أو يُركبون شخصين مثلاً في هودج واحد، أو يُخفون آخر داخل الأمتعة والأحمال، أو يجعلون السّيد جمّالاً، أو يأمرون جماعة أخرى بالسير على الأقدام مع الفقراء، وهكذا! فيكون نصيب أولئك المساكين إما السّجن والضرب بالعصا أو البقاء في البرد أو الحرّ في تلك الصحراء، دون طعام أو شراب! وقد تدوم عملية التنكّر هذه ليلة أو اثنتين، وعلى المتنكِّر تحمّل مشاقّها من ظلمة وخوف وجزع قبل وصوله المنزل الآخر. ولا خيار للحاج المسكين في قبول مثل تلك اللعبة الدنيئة، خوفاً من تلك الجماعة أن يوقعوه في تهلكة جديدة أو تسليمه جملاً لا يحقّ له ركوبه من بداية الرحلة حتى النهاية. فإذا نجح الحملدار في تمرير حيلته هذه على اللصوص، كان ذلك في مصلحته حيث

(١) كتاب (به سوي أم القرى): ٢٣٨.

سيوفّر بذلك مبلغ (٣٠) تومناً في الذهاب و(٢٠) في الإياب، ومع ذلك فهم لا يشكرون الحاج على صنيعه لهم ولا حتى بجرعة ماء أو اعفائه من مبلغ ما.»[١]

وكتب المرحوم (مير سيد أحمد هدايتي) حول هذا الموضوع فقال:

«اليوم هو السبت، الثالث من صفر، وقد استطاع الحملدارية أخذ ما أرادو من ضعفاء الحجيج بعد صراخ وعراك. ثم علمنا أنّ (شيخ المحلّ) لن يأذن للقافلة بالتّحرك حتى تُدفَع له (الخاوة) وحقّ العبور. وبعد جدال طويل ذهب معاونو الحملدارية إلى هناك. وعَقِب انقضاء مدة ساعة، رجعوا وقد جمعوا من أصحابهم بعض المال وقدّموه إلى شيوخ المحلّ وحصلوا على إذنٍ للعبور...»[٢]

٩ـ شحّة المياه:

وكانت شحّة المياه في بعض المناطق من ضمن المشاكل التي كان يواجهها الحجيج في سفرهم. وقد أشار السيد محسن الأمين إلى هذا الأمر بقوله:

«كانت هناك شحّة في المياه في منطقة (بئر الدراويش) وقد حُرِمَ الذين وصلوا متأخرين من الماء! حتى إنّ بعض الحمير والجمال هلكت نتيجة العطش...»[٣]

وكتب (ميرزا داود) وزير الوظائف، حول ظمإ الحجيج وشحّة المياه في بعض المناطق يقول:

«لا أستطيع نسيان منظر تلك المرأة المصرية التي جاءتني لتريني أنّ لسانها قد يبس من العطش، وعرضت عليّ سواراً في يدها مقابل جرعة ماء! فلما أعطيتها الماء ورفضتُ أخذ السوار منها، عمدت إلى يدي فقبّلتها، وأرادت السجود أمام شخصي الحقير! لقد وهبتُ اليوم كلّ ما كان لدي من ماء فلم يبقَ لدي شيء منه

(١) كتاب (تير اجل در صدمات راه جبل)، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ٣٥: ٩٣.

(٢) كتاب (داستان باريافتگان): ٢١٦.

(٣) كتاب (پا به پاى امين جبل)، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ٢٨: ٢١٩.

حتى للوضوء، ولم أستطع كذلك التطهّر من النجاسة، فقد شربوا حتى ماء النارجيلة! وصلنا بعد ظهر اليوم إلى (بئر العلم) ولم يكن فيها ماء كذلك. سبحان الله! لم يبقَ لدى الناس أيّ مقدار من الصبر. فجاوزنا (بئر العلم) حتى وصلنا (بئر درويش) لساعة بقيت للغروب. كان يشتغل عندي شاب شاميّ لم يتجاوز العشرين من عمره اسمه (عبد الله)، وكان هذا الشابّ شجاعاً وذكياً، ذهب بعد ظهر اليوم حاملاً معه بعض القِرَب وركب حماراً وغاب عن الأنظار، ثم عاد لساعتين بقين لوصولنا إلى المنزل وقد ملأ قربتين بالماء فسلّمهما إلينا، ثم أسرع إلى قربة أخرى وأخذها وذهب في عجالة من أمره، وكان يردّد قوله: إنّ الماء قليل هنا! وقد يشحّ هذه الليلة أيضاً. فأعطيتُ قربة من تينك القربتين إلى الجمع هناك. فلما وصلنا المنزل الآخر جاء الشاب (عبد الله) حاملاً معه قربتين مملوءتين بالماء كذلك. كان الزحام شديداً عند البئر وكان الماء قليلاً لا يكفي الجميع. ربما شحّ الماء في الغد أيضاً. وأما العبد لله فلم أضع في فمي جرعة ماء واحدة طيلة اليومين الماضيين. كانت معي بطيخة وكنتُ آكل منها كلّما شعرتُ بالعطش. رجع اليوم جماعة من الحجيج، حوالى عشرة أشخاص، مع اثنين من الحملدارية كانوا قد ذهبوا لجلب الماء. وتبيّن أنّ ستة من الأعراب قد سلبوهم أموالهم وأمتعتهم وثيابهم! لكنّ المسؤول عن قافلتنا كان قد وصل بعدهم، وكان سالماً حيث لم يتعرّض إلى السّلب والنّهب. كان الماء قليلاً وشحيحاً جدّاً حتى منتصف هذه الليلة، ولا سؤال للناس هنا إلا عن الماء. وازداد الماء بعد منتصف الليل بعض الشيء، فاستطاع الأشداء والأقوياء من الحصول على ما أرادوا منه، ثم حصل المشاة المساكين أيضاً على الماء وارتاح بال الجميع. قيل: إنّ (١١) نفراً من أهالي المغرب كانوا قد هلكوا من العطش.»[١]

(١) (سفرنامهٔ ميرزا داود) وزير الوظائف: ١٥٤.

هذا وقد سرد (ميرزا داود) قصة محزنة حيث قال:

«وأما الحادثة العجيبة التي وقعت لنا ونحن في الطريق بين (مكة) و (المدينة)، فهي أنه لما تحركنا من (أبيار حسن) في اليوم التالي، وقد أخذ العطش والجوع من الحجيج كلّ مأخذ، خاصة المشاة منهم، وبالتحديد المغاربة، كنا نصادف في الأزقة باستمرار بعض الزنوج يسألوننا عن الماء والطعام، بينما كنّا جالسين على جانب الزقاق نتناول طعام الغداء. وفي هذه الأثناء جاء صبيّ لا يتجاوز عمره (١٢) أو (١٣) سنة يتكدّى منا، فرمتْ إليه والدة (ميرزا عليقلي) قطعة من الخبز، فهرع صبيّ آخر ليحمل قطعة الخبز، فاشتبك الصبيّان مع بعضهما! وبينما هما على تلك الحال إذ مرّ بعير يحمل على ظهره هودجاً وأمتعة، فداس على ظهر الصبيّ الأول فسقط على الأرض، ثم عاد البعير وداسه برجله ثانيةً وجاوزه! فشعرتُ أنّ الصبيّ قد أصيب في ظهره، وعنّفتُ والدة (ميرزا عليقلي) على رميها للخبز! لكنها كانت محقّة في ذلك، ولم يكن أمامها غير هذا الفعل، فلا يمكننا التغاضي عن سؤال السائلين ونحن نجلس ونتناول الطعام، خصوصاً إذا كانوا بسنّ هؤلاء الصِّبية. وبعد ربع ساعة، جاء شخصان ورفعا ذلك الصبيّ ووضعاه على ظهر البعير وربطاه به بعد أنّ حرّك عينيه بعض الشيء. وعلمنا بعد ذلك من (حاجي محمد علي) المسؤول عن الهودج، أنّ الصبيّ قد توفي!

ولقد تألمتُ كثيراً لهذه الحادثة وكذلك جميع الموجودين في المنزل. إذ كنّا نروم الحصول على الثواب فقتلنا نفساً بغير نفس ولا فساد في الأرض! لقد مرّ علينا ذلك اليوم وليلته كأصعب ما يكون، والله هو العالم.

وفي اليوم التالي وعند وصولنا إلى (المدينة) رأيتُ وكأنّ الصبيّ راكباً على ظهر البعير وصحّته جيدة، وكانت في يده قطعة من الخبز يأكل منها! لكنّ عينيه ما زالتا تبدوان ضعيفتين ولا يقوى على فتحهما كثيراً. فسررتُ لذلك وفرحت لبقائه حيّاً. وكان الباشا قد أركبه دابّة حتى المدينة المنورة. وفي اليوم التالي أبدى الباشا اهتمامه

بالحجيج، فأركب المشاة منهم، وجاءوا بالماء بعد فرسخين أو ثلاثة.»[١]

١٠ـ المشاكل الصحية:

تعدّ مشكلة العلاج والأمور الصحية الأخرى من المشاكل المهمة التي كانت تُصادف الحاج في رحلته. فلم يكن بإمكان الحجيج الحصول على المستلزمات الصحية والعلاجية أثناء الطريق أو في مكة والمدينة على حدّ سواء، ممّا كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى وفاة العديد منهم في الطريق، أو تعرّض بعض آخر إلى أمراض والتهابات مزمنة ظلّوا يعانون منها لعدة سنوات. وأما المسافرون بالبواخر والسّفن فكانوا عاجزين عن معالجة بعض الأمراض غير المعروفة؛ لعدم وجود طبيب على ظهر السفينة.

وصوّر المرحوم (مير سيد أحمد هدايتي) ـ م ١٢٦٤هـ ـ الحالة داخل السفينة بقوله:

«... أصيب معظم المسافرين ببقع وبثور حمر على أجسامهم. وعند الغروب قضى أحد المسافرين الأتراك نحبه بسبب ذلك، وألقي بجسده إلى البحر.[٢] وفي اليوم التالي تعرّضت السفينة إلى عاصفة بحرية وتعالت الأمواج في البحر كالجبال، وأخذت تقذف بالسفينة يمنة ويسرة، وتساقط الرّكاب بعضهم فوق بعض، فلم نستطع أداء الصلاة قياماً. وأصيب معظم المسافرين بالإسهال والغثيان، فكانت نتيجة ذلك أن توفي ثلاثة أشخاص وألقي بجثثهم إلى البحر بعد غسلها وتكفينها.»[٣]

ثم أضاف قائلاً:

«... وأما أنا فقد ابتليتُ بداء البحر... وبقيتُ مُنهك القوى حتى الظهر، ثم

(١) المصدر السابق: ١٦٧.

(٢) كتاب (داستان باريافتگان): ١١١.

(٣) المصدر السابق: ١١٢.

فقدتُ بعد ذلك وعيي! وعندما فتحتُ عينيّ لساعتين أو ثلاث بقين للغروب، رأيت أصحابي مجتمعين حولي وهم يسقونني عصير البطيخ، وإذا بجسمي كله محمرّ وقد انتشرت البثور عليه وانتابتني الحمى... وكان الحجّاج في جدّة يُصابون بحمًى خاصّة تدوم حوالى يومين أو ثلاثة ثم يُشفَون منها.»[١]

وكتب (ميرزا علي خان اعتماد السلطنة) حول مرضه وعدد من الحجّاج قائلاً:

«وكالمعتاد تحرّكنا من (مزيرب) الخربة يوم الثامن والعشرين من شوال. ولا أظنّ أنّ هناك مكاناً في الدنيا أتعس من (مزيرب) ماءً وهواءً، حيث يُصاب أغلب الحجيج الإيرانيين الذين يمكثون فيه بالأمراض، ويهلك معظمهم بسبب تلك الأمراض. ومن جملة المعروفين الذين تعرّضوا لذلك هي زوجة (سليمان خان قاجار) بنت (حاجي رضا قلي خان قاجار) وكانت امرأة وجيهة وجميلة، حيث توفيت في منزل (تبوك) الذي يبعد أربعة عشر منزلاً عن المدينة. فدُفع مبلغ (١٢٠) تومانا إلى الحملدار لتُحمل جنازتها وتُؤخذ إلى المدينة خُفية حيث دُفِنت في البقيع؛ لأنّ أهل السنة هناك لم يكونوا ليسمحوا بتحريك الجنازة من مكانها. وامرأة أخرى (جارية تركية) كذلك من (مهد عليا) وهي والدة (أقدس همايوني) و (رفيع خان نائب فراش باشي) تعرّضت لمثل هذا الحادث، وغيرها كثير.

وأنا شخصياً كنتُ من ضمن المرضى بل الموتى آنذاك لولا رحمة الله، حيث تعرّضنا إلى حمىً قبل ثلاثة أيام من تحرّكنا من (مزيرب) فاتّصلنا بميرزا محمود حكيم باشي (والد الشاه)لكنه لم يهتمّ بالأمر. كان معنا الطبيب (حيدرخان شيرازي) المقيم في (الشام) لكنه قال: بأنه لا يعلم شيئاً عن الطبّ، وأعطاني ثلاثة أنواع من الدواء في يوم واحد، فأصابت قلبي حُرقة شديدة، بل لظى مشتعلة،

(١) المصدر السابق: ١٤٤ و ٢٢١.

والعياذ بالله. وأدى ذلك إلى إصابتي بالغيبوبة في نفس اليوم الذي كنا نروم التحرّك من (مزيرب). فعلم (حاجي آقا محمد حكيم التبريزي) ابن المرحوم الطبيب (آقا إسماعيل) بالأمر، وبسبب ما كان بيننا من ودّ وصداقة، أسرع إلى هناك ودرس حالتي فطلب نقّالة في الحال ووضعني عليها، وهيّأ لي الطعام والدواء. وعند (عين الزرقاء) على بعد ثلاثة منازل من (مزيرب) يئس الجميع مني حيث كنتُ فاقداً للوعي ولا أعلم شيئاً عن نفسي.»[١]

وكتب (ميرزا داود) وزير الوظائف، عن مرض أحد أصدقائه وهو (حاجى آقا نور الدين گنابادي) الذي أودى في النهاية بحياته في المدينة، حيث قال:

«عندما كنتُ راجعاً من الحرم ليلاً، صادفتُ (حاجى آقا نور الدين گنابادي) فسألته عن أحوال أخيه (آقا جلال الدين) فأجاب: أنه مريض منذ مجيئه بالأمس. وقبل يوم من وصولنا وأثناء نزولنا لتناول طعام الغداء، كان هودجهم قد استقرّ بالقرب منّا، فرأيته وسألته عن أحواله، وقد لاحظت ورماً تحت عينيه وفي قدمه، فسألته عن ذلك، فأجاب: ليست حالتي على ما يرام، وأنا مُصابٌ بالإسهال كذلك. فقلت له: ربما كان ذلك بسبب التيبّس والانقباض. وأوصيته بتناول دُهن الخروع عند وصوله إلى المدينة، وعلمتُ أنه لم يعمل بنصيحتي، فلما زرته في المرة القادمة شاهدتُ أنه موضوع لجهة القبلة وهو في حالة اللّاوعي، وقد أتوا إليه بالطبيب بعد أن غطّوا رجليه بشمع الخردل. فعدتُ إلى منزلي في الساعة السادسة، وتناولتُ شيئاً من الطعام ثم خلدتُ إلى النوم. وعند الصباح الباكر جاء نفر وأعلمونا أنّ (آقا جمال) قد توفي! فهنيئاً له! لقد قُبضت روحه في ليلة الجمعة التي صادفت يوم عاشوراء. سبحان الله! لم يقسم الله لهذا الرجل العودة إلى إيران ليتابع أعماله من جديد، فشاء سبحانه أن يقبض روحه هنا. فقمتُ من مكاني وذهبتُ

(١) (سفرنامهٔ ميرزا عليخان اعتماد السلطنة): ٩٣.

لتهيئة مراسم الجنازة. وتمّ دفنه في (البقيع) بمحاذاة الحرم الشريف من جهة القبلة أمام قبر السيدة (فاطمة بنت أسد عليها السلام) وجاء نفر من طرف دائرة المحاسبة وطالبوا بتسليم أمواله ومتعلّقاته ليجردها بيت المال. فكلّمتهم بحدّة، فأسفر ذلك عن نتيجة إيجابية، فاكتفوا بتدوين اسمه، ورحلوا بعد أن طلبوا منا دفع ثلاث أو أربع ليرات، فمنعتهم من دفع ذلك أيضاً.»[١]

١١ـ عدم الاهتمام بأعمال الحجيج ومناسكهم:

لقد كان على الحجيج تحمّل الكثير من المشاقّ؛ لكي يتمكنوا من أداء مراسم الحجّ بشكل صحيح ومقبول. وكان التأخير الحاصل في تحرّك القوافل أو الإسراع في لبس الإحرام وأداء الأعمال الأخرى كالطواف والسعي، كان كلّ ذلك وغيره يسبب المشاكل للحجيج. وقد شرح مؤلف كتاب (تير أجل در صدمات راه جبل) تاسع مشاكل سفره إلى الحجّ كما يلي:

«**تاسعاً**: عدم التوقّف في الميقات لغرض الإحرام، وهذا ظلم عظيم يكابده الحاج، رغم أنّ ذلك لا يدرّ عليهم أيّ نفع أو فائدة. فرغم مجيء هؤلاء المساكين من بلاد نائية، وتحمّلهم لكلّ تلك المصاريف والمشاقّ لأداء فريضة الحجّ بدءًا بالإحرام الذي يجب أن تُقام طقوسه في الميقات، فيبادر هؤلاء القوم لحرمانهم من ذلك. وكما هو معلوم لأهل العلم فإنّ أداء مقدّمات الإحرام كتنظيف البدن وتطهيره والتنوير والغسل والصلاة وذكر النيّة والنّطق بها، وغير ذلك من الأمور التي يجب تلقينها للحاج، كلّ ذلك لا يمكن أداؤه بدون وجود المنزل الخاص بها. وكانت عادة أمير الحاجّ خلال السنوات الماضية التوقّف هناك في وسط النهار مدة ساعتين. لكن مالعمل؟ فلم يصل الحجيج بعد. يجب على الحاج أن يتغلب أولاً على خوفه ويحذر قطّاع الطرق والتّخلف عن القافلة. وإذا فعل ذلك فلن يبقى له أيّ وقت كافٍ

(١) (سفرنامهٔ ميرزا داود) وزير الوظائف: ١٥٦.

لتبديل ملابسه وأداء التلبية. وإذا حسبنا تكاليف الماء الذي يحتاجه الحـاجّ فـقد تصل تلك التكاليف إلى خمسين توماناً، هذا إذا كان قد تأخر عن الركب، وإذا كان موجوداً في القافلة فلن يكون لديه الوقت الكافي لفعل ذلك. وبالجملة فإنّ الحاج غالباً ما يُحرم من فيض الإحرام.»

وذكر في يومياته أيضاً:

«... وأسوأ ما في الأمر هو وصول الحاج على الأغلب إلى مكة في السابع من ذي الحجة، فيتوجّب عليه حينئذ الإحرام في الثامن (من الشهر المـذكور) ليـتهيّأ لمراسم الحجّ، ثم الذهاب إلى منًى. وهناك، وبين العدد الهائل من الحجيج الذي يزيد على مئة ألف، يتخبط الحـاج المسكين يومين وليلة وهو يجهل كيفية تأديته لمراسم الحجّ. فأيّ الأعمال يؤدي؟ فعند وصـوله عـليه أن يـبحث عـن مـنزل له ونـقل حاجياته إليه وغير ذلك، ولهذا لن يبقى لديه الوقت الكافي لأداء أعمال العمرة من غسل وطواف وتقصير ومستحبّات أخرى. فهو لن يجد الوقت الكافي لفِعل ذلك أبداً، فالوقت قصير ولن يستطيع الحـاج إلا أداء اليسير مـن تـلك الأعـمال. وإذا بفريضة الحج التي جاء من أجلها تبدو وكأنها عمرة وليست حجّاً! فهذا ما يصادفه الحـاج، خاصة عند وصوله إلى عرفات ومنًى، حيث يرى كلّ أعماله وقد ذهـبت هباءً. وفي مكة كذلك لا يجد الحجيج وقتاً كافياً للاستفسار والسـؤال عـن شيء لتعويض ما فاته. لكن إذا وصل الحجيج قبل يومين أو ثلاثة من ذلك، فلن يعاني من هذه الأمور بالطّبع. فالمساكين رغم تحمّلهم كلّ تلك المشاقّ والكفّارات فهم لا محالة عائدون بخُفّي حنين!»[1]

١٢ـ عدم رعاية الشؤون الصحية في الأماكن المقدسة:

وأما المشكلة الأخرى التي يعانيها الحجّاج هي عدم رعاية الشؤون الصحية

(١) كتاب (تير أجل در صدمات راه جبل)، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ٣٣: ٩٤.

في الأماكن المقدسة خاصة في الحرمين الشريفين.

فقد كتب (ميرزا عبد الغفار خان نجم الملك منجّم باشي) ـ ١٢٩٦هـ ـ بهذا الخصوص قائلاً:

«إنّ الصفا والمروة جبلان صغيران يقعان على أطراف المسجد الحرام على بُعد ٣٠٠ ذراع... وبينهما سوق ومعبر عام. ويقع المسجد الحرام على جانب من ذلك المعبر في حين تحتلّ بعض العمارات والدكاكين الجانب الآخر منه. وتعتبر هذه البقعة من الأرض مقدسة وطاهرة للغاية، فلا شكّ في أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وبعض الأنبياء في السابق والأئمة الطاهرين والأولياء قد مرّوا بهذه البقعة مراراً وتكراراً. ومع ذلك فإنّ أهالي مكة قد حوّلوا هذه البقعة إلى أقذر ما يمكن تصوّره، وأصبحت مأوًى لكلاب مكة قاطبة.»[١]

وقال في مكان آخر من يومياته ذاكراً مشاهداته في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله:

«لقد رأينا بأمّ أعيننا في المسجد النبويّ جماعة من الهنود وقد أقاموا هناك؛ بادية عليهم علامات القذارة والوساخة. وكان دَيدَنهم كلّ يوم الجلوس على البُسُط النظيفة، منشغلين بقتل القمّل، والاضطجاع والتّحرك هنا وهناك بكلّ وقاحة، دون أن يجرُؤَ أحد على الاعتراض على ما يقومون به.[٢]

ولفقدان المستلزمات الضرورية في منًى أثناء تقديم القرابين، يضطر بعض الحجيج إلى نحر الذبيحة هناك أمام الخيم، ورمي اللحوم وفضلات الحيوانات في نفس المكان تحت أشعة الشمس المحرقة! فينتج عن ذلك فساد تلك اللحوم وانتشار الأمراض المختلفة.

إضافة إلى ذلك فقد اعتاد بعض الأهالي هناك أو الحجيج القادمين من بلدان

(١) مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ١٩: ١٧٨.

(٢) كتاب (سفرنامهٔ شيرين وپر ماجرا)، مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ١٩: ١٨١.

أخرى إلى تقطيع لحم الذبيحة ونشرها في الهواء الطلق ؛ لتجفّ وتتمّ الاستفادة منها طوال السنة، وهو عامل مساعد لنشر الأمراض.»

وكتب (نجم الملك منجّم باشي) حول ذلك فقال:

«إنّ الذبائح التي تُقدّم في عرفات تؤول معظمها إلى جماعة من السّود، حيث يتمّ نشر تلك اللحوم على صخور الجبال وتحت أشعة الشمس؛ لتجفّ بسرعة، تمهيداً لخزنها لتكون ذخيرة لهم طوال العام.»[١]

ويضيف قائلاً:

«لقد تمّ حفر بعض الخنادق لدفن دماء القرابين وفضلات الحيوانات، لكن الحجيج لا يعيرون أيّ اهتمام لذلك، فكلّ منهم ما زال يذبح قربانه أمام خيمته؛ ولهذا السبب فقد أصبح الجوّ هناك موبوءاً إلى درجة كبيرة بالرغم من جمع تلك الفضلات بالتدريج...»[٢]

١٣ـ المعاملة غير الإنسانية التي يعامل بها المرضى والموتى:

لقد كان التعامل الذي يُبديه بعض الحملدارية مع المرضى بل وحتى مع جثث الموتى مزرياً للغاية ، ولا يحتاج هذا الأمر إلىٰ شاهد ممّا كتبه الرحالة ، فهم متفقون علىٰ هذا .

١٤ـ التمييز في معاملة الحجيج:

إنّ مشكلة اتباع أسلوب التميز في المعاملة هي من ضمن المشاكل التي كانت تصادف الحجيج الإيرانيين، بل وغير العرب عموماً.

كتب (ميرزا عبد الغفار خان نجم الملك منجّم باشي) الذي تشرّف بأداء مراسم الحجّ في عام ١٢٩٦ السطور التالية حول هذا الموضوع فقال:

---

(١) المصدر السابق ١٩: ١٧٧.

(٢) المصدر السابق.

«إنّ ما رأيته أنا، سليل الخانات، في أرض الحجاز، زاد من دهشتي بسبب اعتبار العجم هناك أناساً مغضوباً عليهم وحقراء في نظرهم. وبالرغم من تمتّع الحجّاج بشيء من الرفاهية هذا العام نتيجة الجهود التي بذلها (حاجي ميرزا حسن) المفوّض المقيم في جدّة، فما زالت هناك بعض الأخطار التي تواجههنا، خاصة في المدينة المنورة، حيث يعتبرون دم الأعجميّ وماله حلالاً عليهم ومُباحاً لهم، ولا يتورّعون عن إيذائه أبداً. وحتى (السيد حسن مطوّف) المكلَّف والمسؤول عن المطوّفين الإيرانيين من قِبل (معين الملك) يتصرّف بشكل لاأخلاقيّ معهم...»[١]

ويضيف (ميرزا عبد الغفار خان) قائلاً:

«أراد أحد المزارعين الإيرانيين التشرف بالطواف في بيت الله الحرام. فوضع نعله في شاله وربط الشال على ظهره ودخل المسجد الحرام. فلمحه أحد خواجات الحرم وضربه على ظهره عدة ضربات بالهراوة وهو يطوف! فشاهد أحد أقرباء المسؤولين في (البيت الإيراني) الحادثة من بعيد، وأخبر قريبه المسؤول عن ذلك، فأمرالأخيربالقصاص منذلك الخواجة. فأُخذذلك الخواجةبإذنحضرة الشريف والباشا المسؤول عن مكة وضُرِب في نفس المكان الذي ضرب فيه ذلك المزارع. ومثل هذه الانتقادات لا تُوجّه إلا نحو الإيرانيين دون العرب الذين اعتادوا على حمل نعولهم تحت آباطهم والدخول إلى المسجد دون أن يتعرّض لهم أحد.»[٢]

وكتب في مكان آخر من يومياته يقول:

«ومن جملة ما رأيتُ من الامتيازات التي تُعطى إلى العرب في جميع أنحاء الجزيرة العربية هي أنّه إذا حصلت منازعة بين عربيّ وأعجميّ، يحقّ للعربي المذكور توجيه أيّ نوع من التّهم إلى الأعجميّ أو سبّه بشتى أنواع السبّ، في حين

(١) مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ١٩: ١٨١.

(٢) المصدر السابق: ١٨٢.

لا يحقّ للأعجمي التكلم ببنتِ شفة، وإلّا فسيهجم عليه الأعراب هناك ويضربونه حتى الهلاك.»[١]

١٥ـ أخذ الرشوة مقابل الزيارة:

وأخذ الرشوة هي كذلك من ضمن المشاكل التي كانت تُصادف الحجيج، حيث كان مسؤولو الأماكن المقدسة وحرّاسها يُطالبون الحاج بمبالغ من المال، فيضطر الزوّار الذين يرغبون في الدخول إلى المسجد الحرام، أو الذهاب إلى البقيع لزيارة الأئمة إلى دفع مثل تلك المبالغ وإعطاء الرشوة، وإلّا حرموا من ذلك كلّه.

وكتب الكازروني الذي تشرّف بالحجّ سنة ١٩٣٦م بهذا الصدد ما يلي:

«لم يتمكّن الحقير من دخول المسجد الحرام مع (حاجي شيخ عبد الحميد) إلّا بعد دفعنا لريالَين إفرنجيين.»[٢]

وأما (ميرزا داود) وزير الوظائف فكتب يقول:

«تشرّفتُ بزيارة الحرم الطاهر ليلة الجمعة، في السادس والعشرين من الشهر، الساعة الثالثة، فرأيتهم يبادرون بفتح باب البيت العتيق. فقررت الدخول إلى البيت غير مبالٍ بما يكلفني عملي هذا، وكنت حاملاً للمصحف الشريف، فوصلتُ إلى السّلم مع مطوّف كان يرتدي العمامة، فسمعته يقول بالعربية لرجل أعرابي يرتدي عمامة بيضاء عند الباب وقد فتحه قليلاً: إنّ هذا السيّد يريد الدخول وسيدفع لك ريالاً! فأجابه بالعربية كذلك: ما يخالف! (لا بأس). فأخذ العربيّ الريال، ثم وضعتُ قدمي على السّلم، ومدّ الشيخ المسنّ يده فمسكتها ودخلتُ الكعبة الشريفة وشرعتُ بتلاوة الأدعية. وكان هناك شابّ يجلس خلف الباب، فلمّا رآني دخلتُ وطاب لي المقام، جاء نحوي ووقف بجانبي ثم همس في

(١) المصدر السابق: ١٨٢.

(٢) كتاب (سفرنامهٔ كازروني) (ميراث اسلامى ايران)، المجلد الخامس: ٣٦٨.

أُذني قائلاً: عليك أن تدفع لي مجيدياً واحداً! فقد دفعتَ (١٢) قرشاً فقط، ويتوجّب عليك دفع الباقي أو الخروج! ويبدو أنّه كان (ابن شيبة)! فلم أرَ بُدّاً من ذلك فدفعتُ إليه ريالاً في الحال.»[١]

وأما في المدينة فكان الأمر أسوأ من ذلك، كان الحرس الموجودون في البقيع يأخذون من الناس مبالغ للسماح لهم بالدخول إلى البقيع.

وقد كتب (ميرزا عبد الغفار خان نجم الملك منجّم باشي) حول ذلك فقال:

«يُشرف على مقبرة البقيع (مقابر أهل البيت) بوّابٌ كريه المنظر، عبوس، يحمل بيده هراوة. يقوم وبقسوة بأخذ (صاحبقران)[٢] من كلّ إيراني يودّ الدخول إلى البقيع بقصد الزيارة. فإذا أراد الزائر نفسه الدخول إلى ذلك المكان خمس مرات في اليوم، توجّب عليه دفع خمسة قرانات! وإذا تمّ للزائر دخول المكان، يعمد البوّاب (اللعين) إلى طرده بعد وقت قصير، ولمّا ينتهي المسكين بعد من الزيارة!»[٣]

كتب (محمد ولي ميرزا) الذي تشرّف بالحجّ سنة ١٢٦٠هـ بهذا الشأن حيث قال:

«كانوا يأخذون مبلغ ألف دينار من كلّ واحد يريد الدخول إلى البقيع، وثلاثة قروش ممن يريد الدخول إلى الفِناء هناك، ويعادل القرش الواحد عباسياً واحداً. ويأخذون مبلغاً من المال كذلك عند قبة حرم البقيع، إذا أُريد زيارة السيدة فاطمة(ع) حتى يتمكّن الزائر من تقبيل الضريح المبارك.»[٤]

وكتب (فراهاني) عام ١٣٠٢ ما يلي:

«يقوم قليل من الحجّاج من أهل السنة بزيارة قبور الأئمة في البقيع ومع ذلك

---

(١) كتاب (سفرنامهٔ ميرزا داود) وزير الوظائف: ١٣١ـ١٣٠.

(٢) عُملة قديمة.

(٣) مجلة (ميقات الحجّ)، العدد ١٩: ١٨٢.

(٤) كتاب (به سوى أم القرى): ٢٤٩.

فلا أحد يأخذ منهم شيئاً، في حين لا يُسمح لأيّ من الحجّاج الشيعة بالدخول إلى هناك إلّا بعد دفعهم لمبلغ معيّن، وبعد دفعهم المبلغ يُسمَح لهم حينئذ فقط وبدون تقيّة بالزيارة كيفما شاءوا.»[١]

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ (ميرزا معصوم نائب الصدر شيرازي) الذي تشرّف بزيارة المدينة المنورة عام ١٣٠٥هـ، كان قد اعترض على المسؤولين هناك بسبب عدم وضعهم المصابيح للإنارة في الليل، وكذلك على أخذهم المال من الناس للسماح لهم بالزيارة، فقيل له: إذا دُفِع لنا مبلغ (١٥٠٠) تومان سنوياً، فسوف نتعهّد بإنارة المكان، والكفّ عن أخذ أيّ مبلغ من العجم عند دخولهم هناك!»[٢]

١٦ـ جهل الحجيج اللغة العربية:

وأما المشكلة الأخرى التي تُصادف الحجّاج هي عدم تكلّمهم اللغة العربية، وهو السبب الرئيس الذي كان يحول بينهم وبين بيان ما يريدون للآخرين، أو فهم ما يُقال لهم، خاصة عند مرورهم بالمدن والقرى الواقعة في طريق رحلتهم؛ ولذلك كانوا يقعون في عدة مشاكل، وربما فقدوا حياتهم نتيجة لذلك.

وما زال هذا الواقع موجوداً حتى الوقت الحاضر، حيث لا يتمكن الكثير من الحجّاج القادمين من أقطار إسلامية مختلفة من التّحدّث إلى الحجّاج الآخرين. فربما جلس بعضهم إلى جانب بعض آخر ساعات طويلة في الحرم الشريف دون أن يتعرّف أحدهم على الآخر، أو ينبسّ معه ببنتِ شفة!

وختاماً:

لقد استطاع مؤلفو الكتب الخاصة بالرحلات كتابة يومياتهم بدقّة واصفين ما لاحظوه من نواحٍ اجتماعية واقتصاديّة ولم ينسوا حتّى الأحوال المناخيّة التي

(١) كتاب (ميراث اسلامى ايران)، المجلد السادس: ٧٧٧.

(٢) كتاب (تحفة الحرمين): ٢٥٧؛ و(حج كذارى ايرانيان در دورهٔ قاجار): ٧١.

صادفتهم في سفرهم فضلاً عن الحكّام الذين كانت لهم اليد الطولى على أرض الحجاز في الزمن الغابر، وتمكنوا من تسجيل العديد من ملاحظاتهم، وذكر الكثير من المشاكل التي كان يتعرض لها كل واحد منهم. وإذا رُمنا التّطرق إلى كلّ ما جاء في تلك اليوميات، فلن يتّسع هذا الكتيّب الصغير لاحتواء ذلك. لكنّ الأمل يحدونا في أن نجد الفرصة المناسبة في المستقبل بإذن الله لنضع الكثير من المعلومات حول ذلك في متناول يد القرّاء وذوي العلاقة على السواء.

وبهذه المناسبة، نودّ الإشارة إلى نقطة مهمة وهي أنّ الكثير من المشاكل والصعوبات، التي تطرّقنا إليها في الصفحات السابقة قد تمّ القضاء عليها في الوقت الحاضر بفضل الله تعالىٰ ولطفه، حيث يتمتّع حجّاج الأقطار الإسلامية اليوم بأفضل طرق المواصلات والنّقل الحديثة كالطائرات مثلاً، وينعمون بأعلى درجات الرفاهية والتغذية المناسبة، إضافة إلى حالة الأمن والاستقرار عند أدائهم لمراسم الحجّ، ممّا يَسّرَ لهم أداء هذه الفريضة العزيزة في أقصر وقت وأقلّ مجهود، والعودة إلى أوطانهم سالمين غانمين. فلا أقلّ من أن يشكروا الله على نعمه، ويسعوا جاهدين إلى الاستفادة من هذه الفرصة الثمينة إلى أقصى حدّ ممكن لتنمية العناصر الروحية والمعنوية داخلهم، وكذلك الوصول إلى الهدف الذي تنشده لهم الآية الشريفة ﴿لِيَشْهَدوا مَنٰافِعَ لَهُم﴾.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا جميعاً للوقوف على هذه المسؤولية الخطيرة والمهمة، ليتسنّى لجميع حجّاج بيت الله الحرام أداء مراسم الحجّ المبرور والمقبول إن شاء الله، بروح متألقة وأخلاق حميدة وسلوك منسجم مع التّعاليم الدينية والإسلامية، والرجوع إلى بلدانهم في أمن وسلام.